لجـــــــوء

قصة قصيرة



لجـــــــوء

قصة قصيرة

لينا الجبولي





اسم العمل : لجـــوء

اسم المؤلف و دولته : لينا الجبولي - سوريا

التصنيف الأدبي : قصة قصيرة

الترقيم الدولي : 1 - 06 - 6707- 977- 978

رقم الإيداع : 4786 / 2019

رقم الطبعة : الأولى 2019

تصميم الغلاف : محمد وجيه

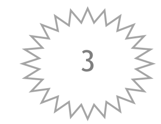
تدقيق لغوي : نجاح العالم السرطاوي

الناشر : دار ديوان العرب للنشر و التوزيع - مصر - بورسعيد

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : 00201211132879

www.dewanelarab.com : الموقع الرسمي للدار



الإهداءُ

إلى ابني الوحيد علي
لوالدي ووالدتي
لإخواني عبد الرحمن و أيمن
و حسين الذين تحملوا الكثير
من أجلي.

لأستاذي ياسر الذي قال لي
و أنا أستعد للرحيل:
اكتبي كل شيء
فكتبتُ.

لأصدقاء الرحلة

لحسان، عبد الله،

أبي عبد الرحمن

و صغيره عبد الرحمن الشجاع

الذي عبر الطريق بشحاطة أصبع

كما نقول نحن السوريون.

لأنس و يوسف و زهرة

لعبد الحميد و وفاء

لصفاء و أطفالها

و الشاب الذي غادرت برفقته

و نسيت اسمه

و للباقين الذين لم تسعفني

ذاكرتي بأسمائهم.

أهدي لكم بعضًا من قصتكم.

لينا




المقدمةُ

ستعرفون أثناء قراءة الكتاب أنه كُتب من قلب الحدث. كتبته من كل مكان خلال الطريق.

من على الأرصفة، من قلب المركب المطاطي،

من على محطات القطار، من داخل الغابة،

من كل مكان كنت فيه في عام 2015.

لكنني لم أنشره حتى بداية 2019.

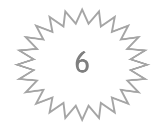
لماذا؟

وضعت الأعذار لنفسي المرة تلو الأخرى، أنني لا أعرف كيف أصل لدار نشر و أنني لا أملك التكلفة ..و...و...و

الحقيقة أنني لم أستطع أن أقلب صفحاته مرة أخرى، ربما دققته عند وصولي و أرسلته بنسخته الأولى لمن كانوا معي و لبعض أصدقائي عندما سألوني عما واجهناه من المصاعب.

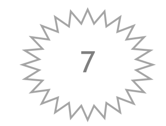
أردتهم أن يروا و يشعروا، لكنني لم أستطع قراءته ثانية و لذلك ربما كان هناك أحداث ناقصة أو أخطاء كتابية

لكنه حقيقي بكل ما فيه.



لقد توقفت عن الكتابة عند وصولنا إلى بودابست لأن الأحداث كانت أسرع و لم أجد الوقت للكتابة و لا الإمكانية.
عند الوصول اكتشفت بأن التفاصيل قد اختفت من ذاكرتي نظرًا للضغط النفسي الذي مررت به، المهم أنه لم يعد هناك أي خطر حقيقي و كانت التحركات بإشراف السلطات في الدول التالية التي مررنا بها و هي : النمسا و من ثم ألمانيا.
بالتأكيد كان هناك بعض المصاعب و المشاكل و لكن الجزء الأصعب كان قد انتهى.
كانت المغامرة بعد ذلك ألطف و أقل حدة.
اعذروني لأنني لم أستطع كتابتها.

كنت أشعر بالألم كلما حاولت فتح الملف لمراجعته. لم أستطع أن أضيف إليه أسطر أخرى. نصحني الأصدقاء بأن أكتب ما حدث بعد ذلك و ما جرى لأبطال القصة. لم أقوَ على فعل هذا. يكفيني أن أقول أنهم جميعًا بخير وقد جمعتني الأقدار بشكل أو بآخر بأغلاهم على قلبي بصدفة خيالية ليصبح أو يصبحوا يمتون بصلة نسب لي. و من قال بأن أحداثًا كهذه لا تجري في الحياة الحقيقية.

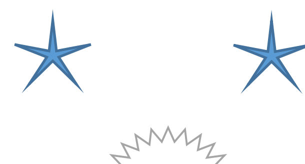


أحسست بالحياة خلال هذه الرحلة كما لم و لن أشعر فيما بعد، بالخوف، بالرعب، بالقرب من الموت في كل لحظة و بالثقة و الحب و القرب ممن شاركوني إياها، كانوا هم أهلي و سندي و شركائي.

يكفيني فخرًا أن أقول أنني قمت بهذا، أعرف أن عشرات الآلاف فعلوها أيضًا و لكنني في يوم ما سأخبر أحفادي بأنني سعيت جاهدة لأوفر لهم حياة حرة كريمة في مكان يحترم آدميتهم. سأخبرهم بأنني فعلت ما بوسعي و حرفيًا مشيت عبر قارة بأكملها لأصل.

لا أدري كم من الناس سيقرأ هذا الكتاب و لربما لن يقرأه أحد. لكنني كتبته و نشرته ليبقى ذكرى مني لأهلي و أصدقائي و شركاء رحلتي و أحفادي ليذكروني، و ليذكروا الآلاف من المهاجرين السوريين الهاربين من الحرب و غيرهم ممن لم يحالفهم الحظ بالوصول أحياء إلى وجهتهم.

الكاتبة




لجـــــوء...
الرحيل الإجباري
و فيض من المعاناة

هذه ليست قصة خيالية و لا تحتوي على أية إضافات و منكهات، لا يوجد دماء تسفك هنا، و لا قاتل يهرب ليتم القبض عليه، فالدماء قد سفكت على أرض الوطن و ما تزال، و القتلة كلهم أحرار لا يوجد لصوص يسرقون في عتم الليل ليقبض عليهم البوليس فالسرقات تتم في وضح النهار وبطرق شرعية تمامًا و الأدلة لا تعني شيئًا هنا من ابتلعهم البحر لا دية لهم و من تم إيذاؤهم سواء من قبل المهربين أو شرطة أية دولة من الدول هم أولًا و أخيرًا مهاجرون غير شرعيين و كأن حدود الشرعية أصبحت تتلخص في سلك شائك يمنح الشرعية و يسلبها حسب الأهواءالسياسية.

لست بحاجة لشحذ تفكيرك، و لا لاستنزاف عواطفك، ما أنت بحاجة إليه هنا لتكون جاهزًا للانطلاق هو أنفاسك و متى أصبحت جاهزًا للركض معنا، انطلق.

لماذا يخوض الكثيرون رحلات الموت لطلب اللجوء في بلاد أخرى ؟ هل تستحق أية رحلة في الحياة أن توضع على كفة ميزان مع الحياة نفسها؟

رهان قام عشرات الألوف من السوريين باتخاذه خلال سنوات الحرب التي بدأت في **2011** و لربما كانت ذروته في هذا العام **2015** بعد أن أعلنت رئيسة الوزراء الألمانية عن استعدادها صراحة لاستقبال اللاجئين السوريين و تسهيل إجراءات لجوئهم.

بالتاكيد لم يكن اتخاذ القرار سهلًا لأي كان أن يضع كل حياته خلفه،

و يقوم بتلك المغامرة ، و مهما اختلفت الأسباب و تناقضت، و اختلفت أحداث و تفاصيل رحلات مئات الآلاف من المهاجرين عبر التاريخ تبقى الخطوط الرئيسية أساسية فيها كلها.

بعض التفاصيل هنا، خاصة للغاية أو مخجلة، إلى درجة أنني لم أستطعْ تدوينها و لكن بإمكان أية امرأة أن تتوقعها بين السطور بمجرد التخمين.

بعضها سقط مني سهوًا و البعض الآخر لم يكن يستحق الذكر.

كل شخصيات الكتاب حقيقية بتفاصيلها، مع احتفاظي بكون الاسم حقيقي أو مختلق.

هذه رؤيتي لهم و لمجريات الرحلة و لربما، أو من المؤكد أن لكل واحد منا نظرته المختلفة .

بعد اتخاذ قرار السفر، الذي استغرق معي امسية واحدة فقط و استشارات سريعة هامة لوالدي و إخواني و أصدقائي و مديري في العمل و بعد استدانة تكلفة الطريق التي قمنا بتقديرها ، بدا التحضير للرحلة من مواقع الفيس بوك التي تقوم بمتابعة رحلات اللاجئين السوريين و إعطائهم النصائح حول ما يجب و ما لا يجب فعله.

المئات من الناس يتابعون خط سير هذه الرحلات و يقومون بإسداء النصح، إما من خلال كونهم زبائن سابقين أو من خلال المتابعة المتكررة.

الرحلة عمومًا تبدأ بتحضير المعدات اللازمة من سترة نجاة و بيل و بتجهيز الملابس الضرورية و الضرورية فقط، و شنطة الظهر و لفائف النايلون. و أما اختيار المهرب المناسب ممن سبق لأشخاص موثوقي التعامل معه، فهو الخطوة الأهم في الرحلة، مع العلم بأنهم جميعًا ينتهون إلى رأس مدبرة واحدة و تنسيق دقيق.

قمت مع أخي بتقسيم تكلفة الرحلة إلى عدة أقسام و قمنا بإخفاء أغلبها و التي لن نحتاجها حتى وقت متأخر من رحلتنا في جيوب خفية قمت بصنعها داخل ملابسنا الداخلية و حرصنا على توافر مبالغ كافية مع ثلاثتنا أنا و أخي و ابني في حال تهنا عن بعضنا أثناء الرحلة.

قمنا بطي الدولارات و تغليفها بالنايلون كي لا تصاب بالبلل و من ثم خياطتها داخل جيب الملابس الداخلية.

بعد اتخاذ هذا القرار و مع الأخذ بعين الاعتبار لسعر الرحلة و وقتها و خط سيرها، فقد تم الانطلاق.

إلى نقطة البداية ، إلى أزمير.

كانت الرحلة إلى أزمير بالطائرة و كان علينا المغادرة ليلًا للوصول إلى المطار.

في التكسي و بعد أن قص علينا السائق قصة حياته، و بعد أن عرف أننا ذاهبون إلى أزمير، سألنا فيما إذا كنا سنسافر إلى ألمانيا، باعتباره خبر

الموسم : "أسراب السوريين المتجهين إليها " كان ردنا هو الضحك و الإنكار.

وصلنا مع بزوغ الفجر و كان يجب علينا التوجه إلى ساحة "بصمان " الموقع الرئيسي لهكذا تداولات.

طوال الوقت كنا نحاول الاتصال مع المهرب لمعرفة وقت الرحلة ولكننا لم ننجح بذلك فحاولنا إيجاد غرفة فندقية، الأمر الذي لم يكن سهلًا في موسم اللجوء هذا و اضطررنا لقضاء ثلاث ساعات في بهو فندق وجدناه أخيرًا منتظرين إحدى الغرف أن تفرغ.

نجحنا أخيرًا في التواصل مع المهرب الذي اتفقنا معه والذي طلب منا أن نرتاح حتى المساء حيث سيقوم بالتواصل معنا لإخبارنا عن الخطوة التالية.

الطريقة التي يعتمدها جميع المهربين، هي عدم إعلامك إلا بمقدار خطوة واحدة للأمام ، فأنت دائمًا في ترقب للمجهول الآتي.

لا زلنا ننتظر حتى تخلو إحدى الغرف و قد سقط كل منا على صوفة في صالة انتظار الفندق الكبيرة، غير قادرين على الحركة من النعاس و الأرق الذي عانينا منه لليلتين على التوالي.

بملاصق لنا ، يفصل بيننا حوض من السمك، كانت جماعات من الناس تتبدل كل نصف ساعة، ليأتي في كل مرة مهرب أو وسيط يجلس معهم

و يخبرهم عن جدول رحلته و تفاصيلها، في انتظار القبول أو الرفض .
لمحنا أربعة من الشباب يحاولون التحدث مع موظفة الحجز لإخبارها بأنهم قضوا ليلة أمس هنا و ربما يغادرون اليوم أو يبقون.

كانوا يصارعون اللغة التركية، و تتداخل العربية مع الإنجليزية لتنتهي الجملة كالتالي : "يستردي هون...تودي ممكن هون ممكن جو..."

و بمحاولات للإشارة بالأيدي للتوضيح... ضحكنا معهم و سألناهم من أين هم في محاولة لبدء حديث معهم أخبرنا أحدهم، أنا شامي، و تابعوا إلى غرفتهم.

بعد قليل عندما عاود أحدهم النزول، قام أخي بالتواصل معه، لمعرفة فيما إذا اتفقوا مع أحد و متى سيغادرون ؟ أخبره الشاب بأنهم أحد عشر شابًاو لا يعرفون متى الانطلاق و لا إلى أين و لا حتى فيما إذا كانوا سيغادرون ليلًا أو نهارًا.

حاولت النوم قليلًا على الصوفة، لكن أصوات المفاوضات وراء حوض السمك كانت تؤرقني.

هذه المرة سيدة يبدو عليها الشقاء و معها أربعة أطفال بنت و ثلاثة أولاد، أكبرهم يبدو في الثامنة أو ربما التاسعة من عمره.

كان هناك من يحاول الاتصال بها و الواضح أنها من غير المقيمين في تركيا حيث أخبرته بأنها ستحاول أن تعطيه رنة من جوال تركي ليتصل

بها،حسب الحديث، الذي تداولته معه، كانت قادمة من لبنان إلى منطقة ما و منها أتت بالبولمان إلى أزمير.

كلمات متناثرة كانت تصل إليّ بين ضحكات أطفالها و محاولتهم اللعب و للاستمتاع بما هو متوفر.

من خلف حقيبة السفر الكبيرة أطل وجه فتاة صغيرة تبتسم بخجل، ابنة السيدة التي تجلس وراء الحوض.. سألتها : ما اسمك...؟ زينب.

عرفتها عن نفسي، فقالت لي : أنا ما بعرفك و أنت ما بتعرفيني، أخبرتها بأننا تعرفنا الآن ، فجلست إلى جانبي و بدأت بطرح دزينة من الأسئلة انتهت باكتشافي أنني لا يمكن أن أكتب شيئًا و هي إلى جانبي لأنها تحسن القراءة جيدًا و في الصف الرابع .. و تأكيدًا لذلك فقد قرأت لي مقالة من على فيسبوكي لأنها أصبحت تقريبًا ملاصقة لي ، ثم اكتشفت أن لدي كاندي كراش و بدأت باللعب و هي تخبرني عن خبرتها في اللعبة و أنها من حلب و قد ذهبوا إلى دمشق منذ عام و عانوا على حدود لبنان في طريقهم إلى هنا ...و استغرقوا الكثير من الإجراءات في المطار ليسمحوا لهم بالخروج.

و أن أخوتها يجب أن لا يكتشفوا بأنها تلعب كاندي كراش، و كانت محقة فسرعان ما انضمت إلينا شقيقتها الأصغر سيرين، لتجلس على طرفي الآخر و يلعبن معًا بأصابعهن الصغيرة على صفحة التاب و يفزن بالدور الذي فشلت ليومين متتاليين بالفوز به.

أخيرًا حصلنا على الغرفة و أخبرت صديقتي الصغيرتين أن عليّ الذهاب ليعجلا بإنهاء الدور، قالت لي زينب: بنلاقيكِ بصالة الغدا...شو رقم غرفتك ؟ قبل أن أذهب عرفت بأنهم بنتان وولد و ليس كما ظننت، أخيرًا سأنام.

كانت صالة الفندق قد اكتظت بالضيوف و ابني انشغل بعملية الترجمة.

صعدت مع أخي إلى الغرفة التي نعمت بأيام عز سابق في مرحلة ما من التاريخ كما بدى، و الذي لم يعد له من أثر سوى بقايا قفل إشعال بالكرت، مكسور على الجدار، و جاكوزي داخل الحمام لا يمكن استخدامه لشدة الوساخة، لم يكن هناك أي ماء ساخن ففشل مشروع الاستحمام قبل النوم.

لا يوجد سيفون، و لا مناشف و تم تغطيه الأسرة ببقايا ملاءات، و مخدات بائسة، التلفزيون يمكن تشغيله و لا يوجد قنوات و التكييف مكسور، و لكن مروحة كهربائية مكافحة كانت هي الرفاهية الوحيدة التي حظينا بها.

قمت و أخي بتغيير سريع للملابس و البدء بإعداد حقائب الظهر ووضع الأشياء حسب الأهمية من تحت لفوق حتى يمكن التخلص من الأقل أهمية أولًا لو اضطررنا، بينما كان ابني لايزال يقوم بمهمة الترجمة بين موظفي الحجز و الزبائن.

انتهينا، انهكني التعب فنمت لأستيقظ كل نصف ساعة و أطالب أخي بالاتصال بابني ليصعد لأخذ قسط من الراحة، الشيء الذي استغرق عدة اتصالات و حوالي ساعتين، سقطنا بعدها جميعنا نائمين من شدة الإرهاق.

كانت الشُنط الثلاث و سترات النجاة و الأبيال الضوئية التي يتم تعليقها باليد تقبع مستعدة منتظرة اللحظة الحاسمة، و قد قام أخي بشرائها من اسطنبول سابقًا، الشنط من نوعية متينة و غير مزعجة للحمل مع تثبيت قوي على الظهر و الوسط، الأبيال يمكن شحنها يدويًا و ربطها باليد، ستر نجاة ملائمة لأوزاننا مصنوعة من الفلين و زوج من العوامات الهوائية التي توضع باليدين بالإضافة إلى إطار هوائي من النايلون اكتشفنا أن مقاسه صغير للغاية.

كان أخي ما بين تجهيز الحقائب و فترات نومه المتقطع، قد قام بالنزول إلى السوبرماركت القريب لشراء الماء و بعض ألواح الشوكولا لأخذها معنا لأجل الطاقة أثناء رحلة البلم ، حيث أنها الأخف و الأسهل حملًا والأكثر فائدة في ظروف كهذه.

كانت تكلفة الغرفة **150** ليرة تركية، لم نعلم إن شملت أي نوع من أنواع الوجبات أو أي خدماتو لكننا لم نحظى بأي منها.

استيقظنا عصرًا و نزلنا لتناول بعض الطعام، الشوارع مكتظة بالسوريين و العراقيين المنتشرين في كل مكان، بعضهم افترش الأرصفة بانتظار

الفرج و إلى جانبهم أكياس ضخمة سوداء تحوي ستر النجاة، و كل ما أمكنني التقاطه من كلمات من أحاديثهم هي ؛ ألمانيا ، ميركل.

هنا و هناك مجموعات تفاوض شخصًا من الواضح أنه مهرب.

بائعو البسطات جاهزون مع البالونات لاستخدامها لحفظ الموبايلات، أكياس نايلون ولفائف و بكرات لصق.

في المساء تواصلنا مع المهرب، و أخبرنا بأن علينا أن نكون مستعدين الليلة للتحرك بالتكسي مبدئيًا إلى مكان معين و منه إلى آخر حتى الوصول لنقطة الانطلاق و التي ستكون من مكان قريب من شيشمي إلى جزيرة كيوس.

و قال بأن البالم سيكون فيه **46** شخصًا و أعطانا بعض التعليمات،

و أصر على أن نقوم بشراء إطارات هوائية من النوع الجيد لنا جميعًا، و هو ما قام أخي به لاحقًا.

في الانتظار، تشاورنا كثيرًا حول العدد، و انتهينا إلى أن الوزن هو ما يهم و ليس العدد، و هذا أفضل الموجود حيث أن الكثيرين يرسلون **60** شخصًا في بلم واحد. كانت حالة الرعب التي انتابتني منذ يومين قد انتهت تقريبًا، و حل مكانها نوع من العزم على الانتهاء من هذه المرحلة المزعجة.

حان وقت التواصل مع رافع، الشاب الذي يقوم بمتابعة البالمات

و مساعدتها إن حصل شيء.

أعطينا رافعًا أرقامًا للتواصل معنا و مع عائلتي و خط الرحلة على أن نرسل له الموقع عند البدء.

و قام أحد أصدقائي بوصل جهازه بحسابي على السامسونغ حتى يستطيع رؤية و رصد مكاني عن بعد، عن طريق الإبلاغ عنه كجهاز مفقود.

وقام بالتأكد من حال الطقس و الريح و البحر ليوم الغد، و أخبرني بأنه بإذن الله سيكون جيدًا ، حيث أنه له خبرة سابقة في الملاحة البحرية.

شكرت الله كثيرًا على أصدقائي الذين أرجو أن لا أحتاج إلى الاستعانة بهم.

ما بين اليقظة و النوم اتصل المهرب ليخبرنا بتأجيل الرحلة ربما إلى الغد، كان ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة و النصف ليلًا ، رفعت رآسي أصارع لفهم شيء، و سمعت أخي يتصل بزوجته ليخبرها بالمستجدات، ثم يجلس ليأكل شيئًا لأنه لم يستطع أن يأكل بشكل جيد طوال اليوم..

حاولت الوصول إلى التاب لإرسال رسالة إلغاء إلى رافع و فيصل صديقي الذي يتابع تحركنا و زوج آخر من الآصدقاء يتابعون رحلتنا.

أخبرني فيصل أن الموج ربما يكون عاليًا في اليوم الذي يليه فقلت له بأننا لن نذهب إن كان كذلك.

كان ابني يتابع مع صديق سبقنا و أصبح في هنغاريا، و الذي أعطاه طريقة تواصل مع مهرب آخر في حال احتجناه.

أخذت حبة دواء واستيقظت في اليوم التالي.

كانت حالتي الصحية جيدة بالعموم و لكن ألمًا مزمنًا في أعلى الفخذ لم يكن يفارقني منذ أربع سنوات فكنت أضطر لأخذ المسكنات طوال الوقت رغم محاولاتي سابقًا لمعرفة سببه بعمل فحوصات و تحاليل و غيره دون فائدة تذكر.

تعلمت أخيرًا التعايش معه، حاول ابني سابقًا مرتين منعي من السفر قائلًا : بأنني لن أتمكن من ذلك بوجود الألم المستمر و الذي يمتد أحيانًا إلى رجلي اليمنى كلها، فأخبرته بأنني قوية بما فيه الكفاية.

عندما أخبره ابن عم له سافر منذ أشهر بأنه يستطيع إن سبقني أن يعمل لي لم شمل قبل أن يبلغ التاسعة عشرة، أخبرني بذلك ليلة أمس فقلت له بأني أعلم ذلك، فأجابني: لماذا لم تخبريني ؟ فلست بحاجة للقيام بالرحلة بنفسك، أكدت له بأنني لن أسمح له بالذهاب وحده أبدًا .

كنت قد عرفت رافعًا من خلال موقع كراج المشنططين على الفيس حيث يقوم دائمًا بتلقي بلاغات البلمات المعرضة للغرق و يحاول المساعدة بالاتصال بالخفر، و إسداء النصائح، و تواصلت معه سابقًا ضمن عملي. عندما قررنا الذهاب تواصلت معه مجددًا.

أما فيصل فشاب أصله من بانياس، صديقي منذ ثمان سنوات، تعارفناعلى الفيس، و تعرفت على عائلته و التقينا سابقًا مرتين و كنا على تواصل دائم.

فيصل أمضى حوالي سنة في دراسة الملاح البحرية ثم ترك الدراسة ليعمل في البحر لمدة إلى أن استقر في الخليج لسنوات ، و في السنة الماضية قام بإرسال أخيه الصغير إلى تركيا ليقوم بنفس هذه الرحلة و يصل إلى ألمانيا، ثم قام بإنهاء عمله البائس في الخليج و القدوم منذ شهر ليقوم بنفس الرحلة، و قد حال اقناعي سابقًا بالذهاب معه فرفضت لأنني لم أكن مقتنعة بالفكرة.

أما ابني فكان طوال الوقت يتواصل مع أصدقائه بخصوص أخبار رحلتهم للجوء من خلال الواتس، أحدهم ابن عمه، و الذي وصل من حوالي الشهر إلى ألمانيا، سوري من أم جزائرية، وحيد أبويه و يبلغ حوالي العشرين من العمر.

عرفته صغيرًا، عنيدًا جدًا و الدم الجزائري يدفعه بقوة دومًا للتهور، والده كاتب و ممثل من الكتاب المغمورين في دمشق، لم يحصل على فرصته كاملة في التمثيل و لربما باع العديد من النصوص لغيره ، و لربما نشرت بأسماء آخرين ، ووالدته ممرضة كل همها في الحياة ابنها" رامي "

و منذ بداية الثورة لم يتوقف عن العراك مع والده المؤيد للعيش بسلام، لينتهي الموضوع بخروجه من دمشق برحلة من أكثر الرحلات تهورًا و بدون توقف من دمشق إلى بيروت ليتوقف لساعات في اسطنبول و يتابع سريعًا ويحط رحاله في ألمانيا ،كان رامي أحد متابعي رحلتنا.

أحيانًا المتهورون مفيدون في إسداء النصح.

صديق ابني الثاني "عماد" شاب في الثامنة عشرة من عمره تقريبًا، عانى الكثير خلال حياته بسبب سمعة والده السيئة كمخبر، و الذي لم يكترث يومًا له و لأخوته.

عانى عماد خلال الثورة في حصار الوعر في حمص، و اعتقل مرة أو مرتين اعتقالًا سريعًا.

كان قد بدأ رحلته منذ حوالي العشرة أيام من اسطنبول.

موارده المالية كانت محدودة جدًا و صراحة لم يكن يكترث كثيرًا لما قد يحدث ، كان يريد حياة جيدة نظيفة مثله.. عماد كان شابًا لطيفًا و مؤدبًا جدًا كنت أعرف أباه و لم يكن يشبهه أبدًا، و الآن يحاول عماد الخروج من هنغاريا و لا يجلس في مكان أكثر من ساعتين كي لا يقبض عليه البوليس.

رامي و عماد ؛ لم يفكرا كثيرًا و لم يتخذا أي إجراء للوقاية، أخذا أول بلم و سافرا، كل هذه الأحداث حصلت أمس.

أمس كان الخميس الثالث من سبتمبر من عام **2015 .....**

*****

استيقظت في التاسعة و الربع صباحًا و تفقدت الرسائل ثم نزلت و أخي لمحاولة إيجاد فندق أنظف الطقس مشمس و لكن يوجد هبات من الهواء.

الشوارع لا تزال تغص بالسوريين و العراقيين، عائلات تتفاوض و البؤس الأكبر كان يرتسم على وجوه الأمهات ، الأب يتفاوض و الأطفال لايفقهون شيئًا إلا أنهم سيتخلصون من أيام الحرب التي عانوا منها لخمس سنوات و الأمهات ممزقة.

كان أحد الفنادق يقوم بتوزيع الأرز المطبوخ مع لبن العيران للسوريين الذين على الأرصفة مجانًا و أثناء مرورنا، لمحنا لافتة معلقة على فندق آخر : "ممنوع دخول حاملي سترة النجاة" بالعربية.

جلست و أخي لشرب الشاي و كان يسألني: هل تشعرين بأن هذا ليس مكاننا ؟ قلت له : بالتاكيد . قال لي: و هل جميع هؤلاء يشعرون بذلك ؟ كان الجواب : طبعًا. سألني أخي: إلى متى سنبقى هنا ؟ أجبته : حتى نسافر.

جلسنا للتشاور في الخطوة التالية، سنقوم بالاتصال بالمهرب لمعرفة المستجدات ، و يجب التواصل مع غيره طبعًا كخطة بديلة في حال فشله، واختصارًا للوقت.

أثناء طريق عودتنا إلى الفندق، اقترحت على أخي طريقة لإيجاد مهرب آخر، قلت له: العائلات التي تفترش الشارع و معهم صبايا هم الأكثر حرصًا على تأمين مهرب جيد، و كانت إحدى هذه العائلات تجلس أمامنا.

توجهنا إليهم و بدأنا بالتعريف عن أنفسنا.

ثلاث صبايا في عمر الورد و ثلاثة رجال في حوالي الستين من العمر، و ثلاثة شباب.

سألت الفتيات عن أمهاتهن، كانوا قد تركوهم في حلب ليذهبن مع آبائهن في رحلة البحث عن مستقبل أفضل.

جلسنا على الرصيف، سألت الفتيات فيمَ إذا كن يعرفن السباحة، أجبن : لا ، و قمنا بتبادل أرقام الهاتف و هواتف المهربين و النصائح، شعرت بعدها و كأنني أقوم بالسمسرة للمهرب و الرحلة فسكت و قلنا لهن أن يخبرننا في حال كانت رحلتهم قد حددت اليوم.

منظر الفتيات أشعرني بالأسى، تبادلت معهن حديثًا قصيرًا، إحداهن كانت تدرس سنة أولى طب بشري، كنَّ يرتدين مانطيات طويلة ، أخبرتهم أن يخففن عند الصعود للمركب كي لا تعيقهن عن السباحة.

قمنا بالعودة إلى الفندق لعمل تشيك أوت أكملنا حزم الحقائب و خرجنا للجلوس قليلًا مع العائلة الحلبية التي تعرفنا عليها، تحدثنا قليلًا معهم، كان المهرب الذي اتفقوا معه قد جاء، و يقوم بسرد قصة طويلة.

دلنا شباب العائلة على أوتيلات رخيصة في الشوارع الجانبية فاتجهنا نحوها و اخترنا أوتيلًا نظيفًا جديدًا و رخيصًا، كانت الغرفة ضيقة جدًا لكن جيدة بسريرين و فراش إضافي ، ب **130** ليرة تركية، مع إنترنت و مياه ساخنة و نافذة و مطعم حمص إلى جانب الفندق.

بعد أن تم بنجاح غسل بعض الملابس بالماء فقط، و الاستحمام و الاستراحة قليلًا و الدعاء لصاحب الفندق على النظافة و الماء الساخن، نزلنا لتناول الإفطار في الثانية و الربع ظهرًا في مطعم صغير بلصق الفندق افترشت طاولاته الرصيف .

أثناء ذلك كان المهرب قد اتصل للتأكد من أننا سنذهب فأكدنا له ذلك، على أمل أن تكون الرحلة اليوم ليلًا ، و تواصلت مع فيصل للتأكد من حالة البحر فأكد لي أنه إن شاء الله لا يوجد مشاكل من شيشمي إلى كيوس.

تمنيت لو كان باستطاعتي أخذ مقابلات صوتية مع كل من أصادفه و لكنني خفت من إخبارهم أنني أعمل في راديو، فيكون لذلك أثر عكسي.

في انتظار فتة الحمص ، مر بنا أحد رفاق ابني السابقين في اسطنبول و معه مجموعة من الشباب، كان يدرس في الجامعة في تركيا، أخبرنا أنه سيعود لرؤيتنا و أكمل طريقه. انتظرنا قليلًا ثم عاودنا الاتصال به فقال أنه مع المهرب من أجل شخص آخر و أنه سيعود اليوم إلى اسطنبول و أنه قد ارتبك، كان واضحًا أنه خائف، لم يكن شابًا من ذوي القلوب القوية، أثناء تناول الطعام مرت من أمامنا عائلة من زوجين شابين و أربعة أطفال أصغرهم لا يزال دون سن المشي، توقفت عن الأكل فقال لي أخي : أكملي أكملي ، فقد كان ينظر في نفس الاتجاه و من المؤكد أنه قد شعر

بنفس شعوري. شاب آخر كان يعبر الشارع الضيق حاملًا كيسًا من أكياس الخيش الكبيرة جدًا و المليء بستر النجاة. تجارة بكل معنى الكلمة، الكل يستفيد من بائع البالونات إلى المهرب الذي قام بتهريب العائلة الحلبية عبر الجبال للعبور إلى تركيا إلى بائع الحمص السوري الذي نقوم الآن بتناول الإفطار عنده.

أعجبتني فكرة التوثيق الكتابي لما يحدث، لم أكن قد كتبت شيئًا أكبر من مقالة منذ الابتدائي عندما حاولت كتابة قصة قصيرة، كل الباقي كان مجرد كتابة تحريرية تخص العمل و بعيدة عن المجال الشخصي.

لم أكن كاتبة و لكنني كنت قارئة جيدة طوال عمري، قرار التوثيق كان مجرد فكرة سريعة خطرت على بالي لإبقاء الأصدقاء على علم بما يجري، فكرت بعدها بأن يكون تقريرًا للراديو الذي أعمل به عما يمر به اللاجئ في رحلته و بتشجيع صغير من صديقي في العمل بدأت به ،على أن أقوم بإرسال المستجدات بشكل متواصل و تفصيلي قدر الإمكان كان هذا التوثيق أفضل فكرة لإلهائي عن التفكير بالرحلة نفسها و أي نوع من المتاعب قد نتعرض له، و أعطتني الكثير من الحماس.

الملهم الأكبر لرحلتنا كان محمد...

محمد هو صديق أخي نموذج من سوء الحظ، الذي يصعب تكراره، شاب طيب و ظريف، من جيراننا في حمص، في حوالي السادسة و العشرين

من العمر، أهله مقيمون في السعودية، كان هناك حتى عامين مضيا، حصلت له بعض الظروف، اضطر لمغادرة السعودية فقرر النزول و الانضمام للجيش الحر، فمر باسطنبول ليودع بعض أغراضه في منزلي و يتابع نزولًا إلى إدلب. حاولنا نصحه و لكن أصرّ على رأيه.

بعد عدة أشهر فر عائدًا إلينا مدعيًّا أنه سيزور عائلته في اسطنبول بعد أن اكتشف أنه لم يتبق سوى القليل جدًا من المخلصين الشرفاء الذين يقومون بالقتال في سورية.. حاول محمد البقاء في بيت شباب و الحصول على عمل ما في اسطنبول ،

و فشل في الحصول على عمل ثم لم يعد لديه مكان يعيش فيه فأخبرت أخي أن يحضره لينضم إلينا في منزلي، فقد كان عندي نصف شباب العائلة ممن يدرسون في تركيا و أهلهم مغتربون في الخليج، و بقي محمد معنا حتى قررت أن لا أقوم باستقبال المزيد من شباب العائلة، لأنني تعبت فطلبت من الجميع إيجاد سكن آخر.

عمل محمد قليلًا في مدرسة سورية خلال وجوده معنا و لكنهم أرادوا تخفيض راتبه البالغ **500** ليرة و الذي لا يكاد يكفيه مع القليل الذي ترسله عائلته، فلم يعد الأجر يستحق حتى بذل الجهد.

بعد محاولاته الفاشلة في الحصول على عمل جيد أو فعل شيء، سمعت بأنه قرر السفر، ثم سمعت أنه اتصل لإخبار أخي جملتين فقط "وصلنا إلى الجزيرة و هاتفي وقع بالماء " ثم لم نتمكن من التواصل معه ثانية ، حتى

وقت متأخر من رحلتنا، كان ذلك من يومين تقريبًا و أما صاحب الهاتف الذي تكلم منه فقد أغلق السماعة في وجهنا عندما عاودنا الاتصال.

إذا كان محمد نجح فأنا أستطيع فعلها.

صعد علي ابني إلى الغرفة لينام قليلًا و تمشيت مع أخي لنتفقد العائلة الحلبية فلم نجدهم على الرصيف.

رأيت أمًّا تجر أطفالها و توقفت لتشتري لهم حلويات، توقفت عند براد الآيس كريم، و كل ما استطعت التفكير به هل أكون بخيلة إن لم أرد صرف ليرة زيادة على الآيس كريم ؟ أو ماذا لو كانت آخر واحدة أتناولها في حياتي.

تابعنا لتصريف بعض النقود و أثناءها اتصل المهرب ليخبرنا بالتجهز للرحلة سريعًا ، فعدنا للفندق وباشرنا بشحن الهاتف و التواصل مع فيصل ليتابع مكاننا.

اتصل بنا المهرب ليخبرنا أن نقابله في نقطة ما معينة، نزل أخي للقائه و لكنه انتظر بلا طائل لعدة دقائق ثم عاد ليخبرنا أن ننزل جميعًا فقد اتصل به ثانية و أخبره أنه في الطريق .

رحلات التهريب عبارة عن نقاط، يتم إخبارك أن تتحرك من واحدة لأخرى حتى تصل إلى نقطة انطلاق البلم.

كان مكان اللقاء نقطة في مركز السوق، على رصيف يضج بالحركة والتاكسيات تقف أمامنا لتمتلئ بمن عليه الدور لينطلق إلى نقطة الانطلاق الأولى على عينك يا تاجر.

جاء المهرب و أخذ أخي معه ليقوم بتسليم النقود في مكان ما مليئ برفاق الرحلة القادمة، اتصل أخي من هناك ليخبرني أن علينا أن ندفع الآن ، قلت له أن لا يفعل، عاد بعد قليل ليخبرني أن معظم الموجودين في الرحلة من حمص، و كلهم قاموا بالدفع، فدفع و توكل على الله (**1200**) دولارًا أمريكيًا عن كل شخص منا، و أخبرني أننا سننتظر قليلًا فتاة حمصية ستذهب معنا في التكسي و الباقون سيلحقوننا تباعًا.

جاءت فتاة في منتصف العشرينات من العمر تحمل حقيبتها على ظهرها كحالنا جميعًا و كيس بلاستيكي أسود كبير يحوي سترة النجاة و الإطار المطاطي غير المنفوخ، بادرتنا بالسؤال "مع مين إنتو" فأخبرناها باسم المهرب و انضمت إلينا.

ذكرت بأنها هنا منذ عدة أيام، قادمة من حمص لبيروت لأضنة ثم أزمير و أنها بقيت لعدة أيام في انتظار أصدقائها الذين سيرافقوننا.

زهرة صعدت معنا في التكسي و اتصلنا برقم أعطونا إياه ليعطي تعليماته و العنوان للسائق. أخبرتني بأنها مهندسة، و أن أسوأ رحلة كانت تلك التي قطعتها من حمص إلى بيروت، اطمأنت زهرة الصغيرة الحجم أننا جميعًا معًا الآن و إن شاء الله رحلة ميسرة.

وصل التكسي إلى النقطة المحددة بعد حوالي ربع ساعة فاتصلنا مجددًا بالرقم ليخبرنا أن ننزل و نمشي باتجاهه، كانت منطقة في وسط المدينة على البحر، عبرنا جسرًا يصل بين طرفي الشارع ليبدو البحر هائجًا قليلًا أمامنا بلونه الرمادي، كانت الساعة تقارب الخامسة عصرًا أخبرنا المهرب الثاني الذي وظيفته على ما يبدو ناطور للحديقة أن علينا الجلوس فيها و انتظار الباقين.

جلسنا تحت الشجر نتحدث نحن الأربعة سألت زهرة: كيف أقنعت أهلك بالخروج؟ نظرت إليّ لتجيب: قصة طويلة قلت لها: أهربتِ ؟ قالت : نعم حاولت إقناعهم لثلاث سنوات و أصيبت ساقي في الوعر ، ثم هربت و اتصلت لإخبارهم.

أخبرتها بأنه قرار صائب لأنه لا يوجد إلا الموت في سورية و من حقها أن تسعى للحياة. تحدثنا عن الكثير من الأمور و سألتني هل أنت محجبة سابقًا و خلعتيه الآن ؟ فقلت لها: قصة طويلة و ضحكنا فقلت لها : مبروك عليكِ شيل الحجاب.

فقالت لي: الحماصنة ما في أحسن منون بس مشكلتون بيحكو عبعض، ضحك أخي ليخبرها بأن كلامها يطابق كلامي بالحرف الواحد، أكدت لها هذا و أخبرتها قصتي مع الحجاب، بأنني قد أجبرت عليه منذ كنت في الثانوية ثم خلعته عندما خرجت من حمص و أضعه فقط في الإجازات عندما آتي للزيارة.. أخبرها أخي بأنني أقوم بالتوثيق فقالت لي :اكتبي،

يلي بدك مدام بالعموم، قلت لها بأنني لا أذكر أي أسماء كاملة و أحيانًا تكون مستعارة، و أنني كنت أتمنى لو بإمكاني تسجيل أصوات جميع من أقابلهم و لكنني أخشى ردود الفعل السلبية.

كنت أقوم بشحن التاب من الشاحن الإضافي و أسجل ما يحدث معي

وأما مهرب الحديقة فقد أتى مرتين ليسألنا كم عددنا؟

يبدو أنه مصاب بالألزهايمر.

قام بنقلنا إلى بقعة أخرى في الحديقة و توزيعنا لمجموعات من خمسة أشخاص و كانت زهرة معنا.

بقينا في هذه الحديقة لحوالي الثلاث ساعات، كانت خلالها سيارات تكسي تأتي لتقل المجموعات و تغيب ثم تعود لتحمل المجموعة التالية، كان دورنا هو الأخير.

منسق الحديقة الذي استقبلنا كان مختلفًا عن الشخص الذي وزعنا ووضعنا في التكاسي ، جلس معنا لحوالي الساعة قبل أن يحين دورنا و أخبرنا أنه إدلبي و أنه يكسب جيدًا من هذا العمل.

جاء التكسي فأخبرنا بأن نبدأ بالركض إليها أو المشي سريعًا مع أننا في حديقة عامة على طرفيها، الطريق العام من جهة و البحر من الجهة الأخرى .

ركضنا لنضع الحقائب في البكاج، و كان معنا شاب حمصي آخر من المجموعة التي يفترض أنهم أصدقاء زهرة ، و الذين علمت بعدها

أن أحد أصدقائها في حمص أخبرها بأنه يمكن الوثوق بهم في الرحلة، الأمر الذي كان بعيدًا كل البعد عن الواقع.

كان سائق التكسي شابًا و مذعورًا و كان يتكلم بالهاتف ليخبر عن موقعه كل دقيقتين أو ثلاث، لم أعد أذكر كم استغرق الطريق، لم يكن وقتًا طويلًا جدًا لكننا خرجنا خارج المدينة ليتوقف على جانب طريق ما و يخبرنا أن نركض و نحمل الحقائب و ننزل في طريق ترابي على يمين الشارع .

داخل الغابة، شخص ما كان هناك ليتلقفنا و نزلنا حوالي مئتي متر ، لنجد مجموعات تجلس على اليمين و اليسار، لم نستطع مشاهدة الوجوه بسبب الظلمة و لكننا كنا قد تعرفنا على بعضهم في الحديقة ، البقية كانوا أيضًا من مجموعات الحديقة و لكننا لم نتعرف عليهم بعد.

جلسنا مع الشباب الحماصنة على طرف، بين الأشجار، و كانت التعليمات أن لا نصدر أصواتًا و لا نستعمل الموبايل كي لا يجذب الضوء الأنظار و أن لا ندخن السجائر.

كان الجميع يحاول استعمال الموبايل بالسر و يشعلون سيجارة بين الفينة و الأخرى و تم تحديد نقطة أدنى ببضعة أمتار كحمام.. دام الانتظار من المغرب و حتى الساعة العاشرة تقريبًا.

لم أعد أذكر الكثير من التفاصيل سوى الهدوء و بعض الأحاديث وحديث الشباب عن محاولات فاشلة سابقة لهم .

جاء المهرب في الظلام، ليقوم بنقلنا إلى مكان آخر بالغابة بمجموعات صغيرة حوالي الخمس أشخاص.

لم نكن قد ميزنا وجوه بعض حتى الآن، نعرف بعضنا فقط عن طريق الصوت، مشينا ربما لخمس دقائق، لنجلس في مكان بين الأشجار تحت الطريق العام بقليل و كان علينا طبعًا أن لا نتكلم بصوت عالٍ .

ذهبنا أنا و أخي و ابني و زهرة في مجموعة واحدة و كان المفروض أن أحد الشبان الذين من المفروض أنهم معها أن يكون الخامس و لكنه تأخر ليبقى مع أصدقائه الشباب.

كان المهرب قد أخبرنا أن لا نأتي مع بعض لكن الجميع أتوا وراء بعضهم، فقام بإجلاسهم.

سمعنا صوت أم و أطفال صغار جدًا يجلسون إلى جانبنا، صفاء.

و توالت الآصوات ،امرأة و زوجها عروسان.

على الأغلب كانت حاملًا ، بلال و عهد.

في ذلك الوقت لم نكن نعرف أسماء بعض و لم نكن قد رأينا الوجوه حتى.

مجرد تبادل معرفة سريع خائف، مرت حوالي ربع ساعة خلالها أخبرنا المهرب بأن شاحنة ستأتي لأخذنا، و أن علينا أن نركض بسرعة إلى داخلها لأنه لا وقت لدينا أبدًا، أتت الشاحنة، وركضنا إلى الأعلى محاولين أن لا نتعثر بالأحجار و التراب أثناء الصعود و أن لا يسقط أحدنا

الآخرين، و تم حشر **44** شخصًا و خمسة أطفال صغار في الخلف، بينما سحبني المهرب إلى الأمام من يدي ليقول لي: اجلسي أنت في المقعد الأمامي إلى جانب سيدة أخرى هناك.

فقلت له دعني آخذ أحد الآطفال الذين في الخلف معي، كان هناك أربعة أطفال مع أمهم الصغيرة في العمر و التي كانت تجلس إلى جانبنا قبل قليل و لم نكن قد رأيناها بعد، كانت تصارع لجر أطفالها و التي كانت كبراهم في حوالي السادسة أو أقل من العمر بنتان و ولدان، أصغرهم بعمر السنتين و النصف.

رد المهرب كان بالرفض: لأ لأ بس أنتِ.

جلست في الأمام و اطمأننت قليلًا عندما وجدت فتحة بين المقعد الأمامي و الخلف حيث حاول ثلاثة أشخاص حشر وجوههم و النظر للأمام.

بسرعة رهيبة ، في أقل من سبع دقائق تم حشر الجميع و انطلق الفان، السيدة التي إلى جانبي كانت في حوالي الأربعين أقل أو أكثر تبدو في حالة من الذهول، ترتدي بيجامة رياضية، و قد ربطت شعرها الأشقر إلى الخلف ووضعت كابًا على رأسها.

حاولت و السيدة التحدث مع من بالخلف لتهدئتهم و التأكد من وجود فتحات تهوية في السقف حيث أخبرتني السيدة إلى جانبي و التي عرفت فيما بعد أن اسمها وفاء بأن هناك سيدة حامل في الخلف أخبرتها أن

المهرب قد سأل أثناء صعودنا بسرعة إن كان هناك حامل كي يجلسها في المقدمة لكن السرعة التي تم بها الموضوع كانت رهيبة، و لم يكن هناك وقت للاستفسار.

انطلقت الشاحنة طريق الرعب، كان هناك أصوات تأتي من الخلف تنم عن التذمر و كنت ووفاء نكرر السؤال ذاته كل عشر دقائق ..."عم تتنفسوا...في حدا مو قادر يتنفس " فيؤكد لنا أحد الوجوه المحشورة في الفتحة الفاصلة أنهم بخير.

كان السائق كبيرًا في العمر و نحيفًا و قصيرًا و كان كلما قاموا بإصدار ضجة في الخلف يدق قليلًا على التابلوه أو الجدار الفاصل ليقول لهم بسرعة .."بروبليم بروبليم " بلسانه التركي و لهجته المكسرة، و يعاود الالتفات للطريق أمامه بسرعة و يتحدث على الهاتف كل ربع ساعة تقريبًا.

كان العتم يلف الطريق حولنا ، طريق متعرج جبلي مرعب، في البداية كنا على الطريق السريع و كان يجري بسرعة **120** كم في الساعة و عندما تأتي أصوات من الخلف تطالبه بتخفيف السرعة يعود لتكرار نفس الكلمة : نونو ...بروبليم....." عندما أصبحنا على الطريق المتعرج كانت سرعة الفان **60** كم في الساعة، لا تزال سرعة كبيرة بالنسبة لمن هم واقفون في الخلف على أرجلهم محشورون بطريقة غير إنسانية بالمرة.. خلال الطريق أخبرتني وفاء أنها كانت قد حاولت الليلة الفائتة محاولة

ببلم و لكنه غرق ،و تم إنقاذهم بمعجزة، كانت الصدمة لا تزال واضحة على وجهها برغم القوة التي تحاول إظهارها.

سيدة لطيفة معها شخصان آخران في الخلف ، عبد الحميد و أحمد، كانت هي و عبد الحميد من دمشق و أحمد من درعا، صديقاها من محاولة أمس .

غريب كيف نجتمع بأشخاص قد يبقون معنا بقية عمرنا دون أن نتذكر فعلًا تلك اللحظة الأولى التي التقينا بهم فيها.

تعرفت لاحقًا إلى عبد الحميد الذي بدا في أواخر العشرينات ربما، شاب هادئ جدًا يبدو أنه ذكي، غير مبادر، و عرفت بأنه عندما كان البلم يغرق في الليلة السابقة، أصيب بحالة تشبه الصدمة حتى أنه سقط نائمًا ، و لاحظت ذلك في ما بعد أثناء رحلتنا، حيث سقط نائمًا و هو جالس في وسط المركب معظم الوقت، كانت هذه طريقته بالتغلب على العجز، و عدم منطقية الظروف التي يتعرض لها و التي يعجز عقله المنطقي عن استيعابها، أحمد درعاوي في أول العشرينات، طالب طب أسنان شجاع و ظريف، و قد سبح بشجاعة أثناء محاولتهم لإنقاذ البلم في الليلة السابقة.

ثلاث ساعات تقريبًا، استغرقتنا الرحلة إلى النقطة التالية، حيث انحرف الفان إلى طريق ترابي في غابة محاذية للبحر، نزلنا لنجلس على يمين الطريق المختفي بين الأشجار ليأتي فان آخر و ينزل آخرون إلى اليسار.

سمعنا أصواتهم كانت لهجتهم عراقية، كانت مجموعة أخرى و لم نتعرف عليهم أبدًا جلسنا في هذه الغابة ما يقارب الخمس ساعات، تبعثرنا فيها على الأرض البعض نام و البعض يتحدث و عبد الحميد سقط نائمًا و الوجوه لا تزال غير واضحة المعالم، ضحكنا و راقبنا النجوم، الكل يدخن بشراهة، ربما بسبب حالة التوتر و الترقب.

وفاء أخبرتنا بمحاولة الأمس مرة أخرى و تعرفت إلى عهد السيدة الحامل و زوجها بلال، أيضًا من أصدقائها في رحلة البلم الغارق، كلاهما لم يبدو أكبر من التاسعة عشرة من العمر و لم أسألهما فيما إذا كان تخميني صحيحًا التشابه بينهما كان أقرب إلى شقيقين منها إلى زوجين، كلاهما طويل و نحيف بعيون كبيرة عسلية.

طال الانتظار في هذه النقطة حتى أرهق الجميع و ناموا على الأرض، كان السائق قد ركن الفان في الطريق الترابي في انتظار تعليمات التحرك و التي لم تأتِ حتى وقت متأخر جدًا في حوالي الساعة الرابعة صباحًا، و بعد عدة إنذارات كاذبة حيث أخبرنا أننا سننتظر فقط لساعة ثم نتحرك و بعدها أننا سننتظر ساعة أخرى و هكذا.

خلال فترة الانتظار تم التنسيق أن ننظم جلوسنا هذه المرة بشكل أفضل داخل الفان حيث أن الجميع عانى في المرة الأولى و لدينا ما يكفي من الوقت لتنظيم ذلك هذه المرة.

قام ابني و أخي و الشباب بتنظيم الجلوس هذه المرة لأجل الأطفال

و النساء، و كان ابني يقوم بعملية التواصل مع السائق لأنه يتكلم التركية. طلب منه السائق أن نسامحه لأنه كان مسرعًا و لكنه يخشى أن يتم القبض عليه، الحالة التي يمكن أن يسجن بسببها لخمسة عشر عامًا دون أي ضرر علينا، و أن نسامحه أن تركنا في حال حدث شيء و هرب.

كان حظي للمرة الثانية أيضًا في المقعد الأمامي إلى جانب عهد ووفاء. الرحلة الأخيرة استغرقت حوالي الساعة و النصف ليتوقف الفان في طريق جبلي قريب من الشاطئ ينحدر نزولًا بشكل خفيف.

طلب منا السائق النزول للجلوس لمدة دقائق، نزلنا ثم قاد الفان إلى حيث نزلنا على بعد حوالي المئتي متر نزولًا ليركنه، و طلب منا أن نباشر بالسير و أشار لنا إلى الاتجاه الذي علينا أن نمشي فيه.

كانت الجبال تحيط بالمكان و لكن ضوء القمر أنار لنا الطريق مع بوادر الفجر، لم يكن من السهل أبدًا السير على الأرض الصخرية، لم تكن صخورًا كبيرة بل تقريبًا بحجم عشرين سنتيمرًا أكبرها صخور ملساء شبيهة بالحصى لكن بحجم أكبر، جاهدنا للمسير و صرخت عدة مرات أطلب من الشباب مساعدتنا بالأطفال الأربعة، أولاد صفاء. الشباب الحماصنة و الذين من المفروض أن يعتنوا بزهرة ، محمد و ألمار، و لم أعرف اسم الشخص الثالث، تجاهلوا النداء و كأنهم لم يسمعوا شيئًا، كان كل واحد منهم طويلًا و ذا بنية قوية و شهامة معدومة.

محمد كان من المفروض أن يقود البالم كي لا يدفع ثمن الرحلة، و طوال الوقت في الغابتين ، كان يبدو عليه التردد و الخوف.

عبد الله و أحمد و شاب من اللاذقية اسمه حسان كانوا من لبى طلب المساعدة مع الأطفال بالإضافة لعبد الرحمن البالغ من العمر ثمان أو تسع سنوات. مشينا ما يقارب النصف ساعة لنصل إلى الشاطئ مع أولى خيوط الفجر، دقائق و أتى شباب أتراك يحملون بالم لا يزال مغلقًا، فتحوه بسرعة و بدأوا بالنفخ، و بدأ الجميع ممن بدأوا يصلون على التوالي بنفخ دواليب الهواء و لبس ستر النجاة بأسرع وقت ممكن، لبست سترتي و قام أخي و ابني بنفخ الدواليب، أسرعت لمساعدة صفاء التي كانت تعاني مع شاب من القامشلي اسمه أنس بنفخ ستر الأطفال و علمت بأنها أضاعت واحدة، ما يعني أن أحد الأطفال سيكون دون سترة، أعطيتها الإطار الإضافي الصغير الذي كان معنا بعد نفخه، كان هناك مشكلة أيضًا في ستر الأطفال، فبعد نفخها كانت تفتح مرة أخرى و يفرغ الهواء منها بسرعة، الحل الوحيد كان بوضع شريط لازق بسرعة، كان حلًا طارئًا و غير مجدٍ، بقية دواليب أو إطارات النجاة كانت من النوع الأسود القوي و كان لدينا في المركب الكثير منها.

على الشاطئ كان أنس الحلبي يسأل الآخرين فيما إذا كان عليه أن يصعد معنا في البلم أو لا؟ اكتشفت أنسًا الحلبي هناك، كان قد صعد معنا في الرحلة إلى الشاطئ بالخطأ فقد أتى مع مجموعة مع أخيه يوسف، و أثناء

صعودنا إلى الفان صعد معنا هو و صديقه عبد الرحمن كان قد اكتشف خطئه عندما كان في الفان و لكن الوقت أصبح متأخرًا، فقد تحركنا و لم يكن المهربون سيسمحون لأي أحد للعودة.

لم يكن قرار أخذه معنا في البلم سهلًا فأي زيادة في الوزن تعني غرقنا جميعًا.

كان رأيي أن الوزن هنا أهم من العدل، و بأي حال فقد أخذناهم معنا في النهاية لأننا لم نستطع تركهم على الشاطئ.

انتهى نفخ البالم و ركض الأتراك لوضعه في الماء، و تجربته مع ابني و أخي و من سيقوم بقيادة المركب : محمد.

كان سبب اختيار أخي قراءة الخريطة ففي الغابة الأولى طلب المهرب أن يقوم أحد ممن لديه جهاز يستطيع قراءة الخريطة بالمساعدة و كان أخي يملك جهازًا مناسبًا هاتف طبعًا، و لديه أعصاب قوية، جلس مجموعة من الشباب مع أخي و قام بإطلاعهم على الطريق على الخريطة و تعليمه طريقة الوصول.

على الشاطئ طلبوا منا الجلوس بينما يقومون بتجربة البلم و للتأكد من أنه سليم.

قبلها بدقائق كانوا قد أخذوا أخي و السائق ليكلموه قبل الرحلة بعيدًا عنا و بعد الانتهاء من التجربة، نزل الأتراك و طلبوا منا الصعود، و في ثوان، كان الشباب قد صعدوا فوق بعض و جلسوا بطريقة عشوائية و تركوني

على الشاطئ مع صفاء و زهرة و الأطفال فقام الأتراك بمساعدتنا بالصعود بسرعة و جلست على طرف البالم و أمسكت بالحبل الموجود على الأطراف من الخارج، لم يكن هناك مكان حتى لوضع الأرجل فقد تكدس الجميع داخل البلم، كان من المفروض إجلاس النساء و الأطفال في الوسط، و الشباب على الأطراف، طلبوا مني أن أحاول الوصول للوسط فرفضت ، لأن الوضع كان كارثيًا كان أخي و ابني في مؤخرة البلم عند المحرك للمساعدة في تحديد الطريق و أنا في المقدمة تقريبًا.

و بدأنا رحلتنا مع طلوع الفجر، بعد أن قام أخي بالتحدث مع الجميع أننا مجموعة واحدة و في مركب واحد و علينا جميعًا أن نحافظ على هدوئنا طوال فترة الرحلة كي لا نصاب بالذعر و أن نساعد بعضنا للوصول.

كان الطقس رائعًا و البحر كالمرآة.

قمنا بإخفاء بيدون البنزين الإضافي عن الأنظار في حال أتى خفر السواحل كي لا يأخذوه و يدعونا في وسط البحر و ذلك بناء على توصيات من المهربين و من آخرين قاموا بهذه الرحلة من قبل، و تم تشغيل المحرك الصغير جدًا و الجديد بسرعة خفيفة كي لا يتوقف بنا.

كان من المفروض أن رحلتنا ستستمر حوالي الساعتين إلى جزيرة كايوس ، و بعد ساعتين من الرحلة علمت أننا متجهين إلى متليني و أنه تم تغيير

الطريق عندما تحدثوا مع أخي و السائق على الشاطئ لأنه تم القبض على بالمين سبقونا في تلك الليلة كانوا متجهين إلى كايوس.

بجانبي جلس شابان عراقيان أحدهما معه ابنه في حوالي العاشرة من العمر و الثاني صديق له رافقه من كربلاء، أحدهما على يميني و الآخر على يساري، و طوال الرحلة كان الذي على يساري يردد: "صلوا على رسول الله و على آل رسول الله، الفاتحة يا شباب " بلهجته العراقية.

في البداية تمايزت اللهجة العراقية و بعد أول مرة أو ثاني مرة ردد فيها هذه الجملة تأكدت بأنه شيعي فسألتهم: من أين أنتم قادمون أجابوني: من كربلاء. وكان الذي على يساري ينظر بما يبدو أنه حزن على الأطفال الأربعة في قعر المركب و المتعلقين بأمهم و يرفضون أن يجلسوا في حضن غيرها "دمرونا، الله يلعنك يا بشار، الله يلعنهم كلهم، من بشار للمالكي" فقال له أحد الشباب المستلقين في قعر المركب "لأبو بكر" ،، أجابه : "لا ليش أبو بكر" رد عليه الشاب: "أبو بكر البغدادي تبع داعش،" أجابه: "نعم" بلهجته العراقية، تيقنت بأنه شيعي و خائف منا، فقد كان يحاول أن يبدو لطيفًا بشتى الطرق و خلال رحلة البلم عندما أخبرته أنني مترجمة قال لي " أقولج باشر تساعدينا بالترجمة بس لا تفضحينا و تقولين إني عراقي، تى آني ناوي أقول آني سوري.

" طمأنته إلى أنني لن أقول شيئًا فكلنا في حالة حرب، و في نفسي كنت أقول : سبحان الله نحن الآن فعلًا شيعة و سنة في نفس المركب و الذي

ممكن لو تفوه أحد بشيء طائفي أن يغرق بنا جميعًا، كان الصمت هو الأفضل في هكذا حالات.

قعر المركب كان المكان الأسوأ و فيه استلقت زهرة و صفاء و عبد الحميد و حسام و شاب آخر و هما من الرقة، هؤلاء كانوا أمامي في الطرف القريب مني، و شباب آخرون استلقوا في الطرف الأبعد رأيتهم كثيرًا بعدها في متليني و لكنني لم أحفظ أسماءهم و لم أتبادل معهم حديثًا مهمًا.

كان وجه زهرة يطفو بين الوجوه و بقية جسمها مطمورًا تحت الدواليب المنفوخة و أيدي و أرجل الآخرين و لم يكن الوضع بأحسن بالنسبة لبقية من جلس معها في قاع المركب، و منهم صفاء و أطفالها الذين حاول الجميع الاعتناء بهم و تغيير مكانهم قليلاً لإراحة أمهم و لم ينجحوا في ذلك إلا مع البنات، فالأولاد كانوا يرفضون الابتعاد عن الأم، بالعموم كانوا أطفالًا هادئين إلا فيما ندر فقد بكوا قليلًا، و كانت الابتسامة لا تفارق وجه صفاء إلا فيما ندر أيضًا.

عبد الحميد كان يقوم بين الفينة و الأخرى بالنظر في الجي بي اس، ليرى فيما إذا قطعنا المياة الإقليمية التركية و يعاود السقوط نائمًا بشكل غريب، و كانت طريقة جلوسه غير مريحة بالمرة.

كان الذي على يساري يناديه كل الرحلة بعبد الله، "يا عبد الله شوفلنا هذا الجي بي اس مدري شسمه، ها وصلنا، شم بقالنا نوصل؟" و علمت فيما

بعد من الآخرين ، أنه كان بين الفينة و الأخرى يخرج حجرًا صغيرًا فيقبله و يعيده إلى مخبئه.

أربع ساعات و نصف قضيناها في البحر انطلقنا في السادسة و خمس و عشرين دقيقة ووصلنا في حوالي الساعة العاشرة صباحًا إلى مرفأ بولماري، على طرف جزيرة متيليني، و كنا أول رحلة على الإطلاق تصل إلى تلك البقعة المنفية من الأرض.

لم تخلُ الرحلة من بعض المناوشات بين الذين في القعر و الجالسين على أطراف المركب، بين لا أستطيع أن أحرك قدمي من الازدحام، و رجليّ محشورة تحت فلان و لم أعد أشعر بها، و بين أنت جالس مرتاح و أنا واقف نصف الرحلة و قام البعض بهدوء بمحاولة تغيير طريقة استلقائهم فلم يكن من الممكن لهم أن يجلسوا بشكل جيد أبدًا كي لا يتغير توزيع الوزن على البلم، و حاولنا وضع بعض الإطارات المنفوخة تحت البعض لرفعهم قليلًا و لإراحة ظهورهم كانت كل حركة تتم بهدوء و حذر لأن الحركة كانت صعبة جدًا و مجرد سحب أحدهم لرجله بسرعة قد تعني أن اثنين قد يتحركون معه و يختل التوازن.

كنا نسير ببطء لأن المحرك كان جديدًا، القلق الأكبر لدى الجميع كان أن يقبض علينا خفر السواحل التركي قبل أن نعبر المياة الإقليمية فكان عبد الحميد يفحص الجي بي اس في فترات استيقاظه .

لم يكن هناك أجمل من البحر في ذلك الصباح و الطقس لطيف للغاية، و لولا حالة الترقب و عدم الارتياح في وضعيات الجلوس لما كان هناك رحلة أفضل من رحلتنا، فقد قضيناها عمومًا بسلام و نحن نضحك، ساعدنا الطقس و الحظ و الحمد لله لم نواجه أية مشكلة على الإطلاق.
الخطأ الوحيد كان ترتيبات الجلوس التي لم يتم تنظيمها، فقد كان من المفروض وضع الإطارات في القعر للجلوس عليها إذ أنها قاعدة مريحة و آمنة و من ثم تنظيم الجلوس بالعرض مثلًا و بطريقة المخالفة، حينها كان الوضع سيصبح مريحًا أكثر.
لا يمكنني شخصيًا أن أشكو من الرحلة فقد استمتعت بها، بينما علمنا فيما بعد أن الكثير من الرحلات عانت إما من إلقاء القبض عليها من خفر السواحل التركي أو بالخلاف والمشاكل بين المسافرين أو بالغرق الذي تم في اللحظات الأخيرة تفاديه و العودة لنقطة البداية.
كنا نترقب قطعنا للمياة الإقليمية أوّلًا و قمنا بتهنئة بعضنا عندها و ترقبنا بعدها الوصول إلى الجزيرة.
كان منظر الجزيرة الذي بدأ بالوضوح شيئًا فشيئًا من أكثر المناظر بهجة بالنسبة لنا عندها وازدادت سعادتنا مع وضوح المعالم .
صيحات التهنئة و التقاط الصور و اللحظة التي لمس فيها القارب الشاطئ كانت رائعة و صادقة إلى أبعد الحدود، قبل الوصول بقليل

لمحنا شخصين في قارب سريع و أخذا بالتلويح لنا و عند الوصول للشاطئ قاما بفك المحرك و أخذه في الوقت الذي قمنا بإحداث ثقب فيه و خلع الستر و رمي الحقائب بسرعة على الشاطئ لنجد مصورًا جاهزًا محترفًا، في انتظارنا، قام بالتقاط بضعة صور و تهنئتنا بالوصول بالسلامة.
بدأنا المشي لعدة دقائق لنصل إلى ساحة تلك المدينة المهجورة إلا من العجائز الجالسين على المقاهي يتفرجون على البحر، كان من الواضح أنه لا وجود للحياة على تلك البقعة من الأرض كانوا ينظرون إلينا كالقادمين من المريخ.

سألنا على مركز الشرطة لنصله بعد عناء ولف و ذهاب للمركز الرئيسي للشرطة و الذين طردونا و أخبرونا أن نذهب لمركز شركة الميناء و الذي كان في نفس الساحة التي بدأنا منها.

كنت أول الواصلين إلى المركز، صعدت إليه في الطابق الأول من مبنى عتيق فأغلق الشرطي الباب في وجهي طاردًا لنا قائلًا : اذهبوا من هنا، اذهبوا.

حاولت الحديث معه ، قال : اذهبوا إلى متليني اذهبوا هيا الآن، و أخذ يهش علينا بيديه طاردًا إيانا للأسفل خارج البناء و تابعًا إيانا حتى الشارع مكررًا كلماته: اذهبوا إلى متليني، نحن لا نستقبل هنا و عندما سألته : كيف نذهب ؟ أجاب : اذهبوا مشيًا، إنها على بعد **80** كم.. ليست مشكلتي.

حاولت الاحتفاظ بهدوئي قدر الإمكان، و كان من الواضح عدوانيته.
اذهبوا مشيًا لا يوجد تكسي و لا باص.
اقترب شاب يوناني منه و أخذ يحاول أن يكلمه فكان يعيد عليه نفس الحديث باليوناني و لا أدري ماذا كان يقول بالضبط و لكنني كنت أتقن بعض الكلمات فقلت له : أنا أفهم اليونانية الأمر الذي استفزه أكثر، و رفض كل محاولات الشاب نيك بإقناعه بالمساعدة، التفت نيك إلينا ليعتذر و يوضح بأن الشرطي يرفض المساعدة و علينا التوجه لمتليني و أنه لا يمكن لأي مواصلات أن تقلنا لأننا غير شرعيين، و أنه سيقوم بما في استطاعته لمساعدتنا و هو ما أثبته في الساعتين اللاحقتين.
لحقنا الشرطي في الشارع طاردًا لنا بنفس الكلمات فالتفت إليه قائلة بالإنجليزية: سنذهب نحن ذاهبون، و كنا واقفين مذهولين في أماكننا فقال لي: لا أراكم تتحركون، هنا قلت له: لا تخاف سنذهب و بكل الأحوال أنا صحفية أجابني: أنا لا أهتم، نظرت إليه بلؤم و أخبرته أنه من الأفضل له أن يهتم، فأدار ظهره و عاد إلى مركزه، و جلسنا إلى طرف قهوة فيها بعض الناس و شاب بقميص أخضر فاتح فهمت أنه يقوم بتحريض الآخرين علينا من خلال بعض الكلمات.
قدم نيك لمحادثتنا و الاعتذار عما فعله الشرطي قائلًا أنه شرطي غبي لا يريد المساعدة لكن بإمكاننا الذهاب إلى ميتليني حيث يمكن مساعدتنا، المشكلة الأساسية هنا هي في الحصول على وسيلة مواصلات،

حيث أن الشرطي قبل أن يغادر إلى مكتبه أوقف الباص الذي يبدو أنه كان ذاهبًا إلى متليني و قال له شيئًا يخصنا و عندما طلبنا منه أن يأخذنا، أجاب : ب " لا " و غادر.

فهمنا من ذلك أن الشرطي منعه من المساعدة، بحجة أننا غير شرعيين.

أثناء جلوسنا على الرصيف قدمت إحدى السائحات مع زوجها و التي لم نعرف من أي بلد و حاولت المساعدة بالتحدث إلى مكتب تأجير السيارات و السؤال عن وسيلة مواصلات لنا ثم عادت لتخبرنا أن علينا المشي أو ربما استئجار تاكسي بتعرفة تصل إلى ال **40** يورو للذهاب هذا إن استطعنا إيجاد تكسي تقلنا لأنه ممنوع قانونيًا إلى أن نحصل على ورقة الطرد "الخارطية"، و قامت السيدة بالاعتذار عن عجزها عن المساعدة المرة تلو الأخرى و بعد محاولات حثيثة فاشلة لإيجاد حل .

قامت بعدها بشراء أطعمة لأطفال صفاء و البقاء قليلًا معنا و دلتنا على الطريق في حال قررنا المشي و أعطتنا تعليمات عن المشي على جانب الطريق و الحذر لأنه خطير.

كان نيك خلال ذلك الوقت يعرض شراء الطعام لنا و يعتذر لأنه لم يستطع إقناع الشرطي بالمساعدة ،

و رفض أن يذهب ، مع أننا أخبرناه انها ليست غلطته و أنه لم يكن بإمكانه أن يقوم بأكثر مما قام بها، ثم ذهب مع أخي لشراء خط هاتف يوناني لنطمئن أهالينا.

خلال غياب أخي و نيك جاء رجل يرتدي قميصًا أزرق يبدو أنه شرطي أيضًا و أخبرني أنهم قاموا بطلب باصين لنقلنا إلى متليني و أن علينا الانتظار لنصف ساعة فقط و الجلوس حيث نحن، لأن مجموعة أخرى وصلت إلى الجزيرة بعدنا و قد أصبح عددنا ما يقارب المائة على تلك البقعة البائسة من الأرض.

انتظرت عودة أخي و نيك بفارغ الصبر لأخبرهم بذلك بعد أن قمت بإخبار الباقين و جلسنا لتناول المأكولات التي أحضرها أخي و نيك، الذي رفض المغادرة و فضل أن يبقى معنا للاطمئنان علينا.

أخبرنا بأنه أسترالي الجنسية ووالدته من الجزيرة و هو هنا لقضاء عطلته فقط.

بعد حوالي ربع ساعة حضر أحد أفراد مجموعتنا ليخبرنا أن الشرطي ذا القميص الأزرق طلب بأن نجتمع في حديقة صغيرة في الساحة لتقلنا الباصات بعد قليل، ودعنا نيك و قام ذو القميص الأخضر بافتعال مشكلة معه لأنه صافحنا وكان لطيفًا معنا فانضم إلى نيك، عجوز كان جالسًا في قهوة مقابلة ليدافع عنا و يؤنب ذا القميص الأخضر بقساوة و يصافحنا مودعًا هو الآخر.

طلبت مني صفاء أن أساعدها بأخذ الأطفال إلى حمام عام موجود في الساحة، قبل وصول الباصات، قمنا بذلك و عدنا بسيرعة، لنصعد بسرعة

كل مجموعة بلم في باص منفصل فيه ما يشبه التكييف مع نوافذ مفتوحة، الحر كان شديدًا.

الجميع قد سقط نائمًا على كتف من يجلس بجانبه و أنا سقطت على كتف زهرة، و بين لحظات صحوتي و نومي مجددًا رأيت الرؤوس ترتفع و تهبط مع حركة الباص و قد أنهك الجميع التعب و في المقعد الخلفي كانت صفاء وحدها المستيقظة جالسة مع أنس القامشلي و الأطفال الأربعة حولهما على الطرفين نائمين و ابتسامات واسعة تغطي الوجهين.

لم يناما طوال الطريق، كان ذلك صباح السبت الخامس من سبتمبر 2015.....

****

أكتب هذه السطور و أنا مستلقية بين المقاعد في الباخرة المتجهة إلى أثينا في الساعة الواحدة ظهرًا من يوم الاربعاء التاسع من سبتمبر **2015** رائحة الأرجل تزكم الأنوف و لكنه المكان الأكثر راحة للظهر و في منتهى الروعة بالنسبة لي بعد خمسة من أسوأ الأيام في حياتي قضيتها في جزيرة ميتليني أو جزيرة النحس الملعونة كما أطلقنا عليها.

أوصلتنا الباصات إلى مخيم أعد للسوريين، ما أن وطأت أقدامنا الأرض حتى وجدنا المئات يتجولون في كل الاتجاهات، سألنا أحدهم فأخبرنا أنه من الأفضل أن ننزل إلى ميناء المدينة لأنهم منذ عدة أيام في المخيم و لم يقم أحد بإنجاز أوراقهم و الوضع مزرٍ هناك، و أنهم سيعاودون النزول هم أنفسهم للميناء للإضراب قلت لأخي أن يسأل غيره لعله يكذب، فأخبرونا أن نتجه للمدينة، توجهنا قبل أن نقوم بزيارة المخيم.

المئات أيضًا كانوا يسلكون الطريق ذاته، و آخرون عائدون باتجاه المخيم و الذين أخبرونا أنهم لا أمل في الميناء أيضًا و أن هناك الآلاف من المرابطين هناك.

الطريق كان طويلًا جدًا و الحرارة في ارتفاع واصلنا شرب الماء و صبه على رؤوسنا كي لا نصاب بضربة شمس، مشينا طويلًا، و كانت أقدامي المنقوعة بماء الملح و المتسخة بالتراب من الغابة و أوساخ الطريق داخل الحذاء المنتفخ تستغيث و الألم يزداد فيهما مع كل خطوة توقفت عند أول محل واشتريت شحاطًا بإصبع و رميت الحذاء.

أعداد هائلة من البشر يتجهون صعودًا و نزولًا على جانبي الطريق أمامنا، مررنا بمخيمين في طريقنا لأفغانيين و سوريين و أكراد على ما أذكر وصلنا إلى الميناء بعد عناء لنشاهد على مد النظر، سوريين و أكراد و عراقيين و أفغانيين يفترشون أرض الميناء بخيام صغيرة و حقائب النوم و أوراق الكرتون.

أتلف ازدحام الأحداث و تسارعها ، ذاكرتي ، أذكر أننا اتجهنا لإيجاد مكان للجلوس على الأرض في مكان خلف الحشود، ثم حاولنا الوصول لمكتب التسجيل و لكن الشرطة كانت تملأ المكان و المشاكل مستمرة في محاوات لتنظيم الدور، الكل يصرخ الكل متعب و الكل يتذمر، بعضهم يحاولون الانتظام و الكثير من الغوغائيين الذين يقومون بإفساد أية محاولة لعمل دور بحجة أنهم حاولوا سابقًا منذ أيام و كان الموظفون يقومون بإنجاز بعض الأوراق ثم يغلقون بعد أن تعم الفوضى، كان الوضع مزريًا للغاية ، لا أذكر في أي يوم الأول أو الثاني قام بعضنا بشراء حقائب للنوم و اشترى بلال خيمة صغيرة له و لعهد زوجته و الباقون استمروا بافتراش الأرض و أنا منهم.

يحتل الميناء الجهة اليسرى لشارع طويل يمتد على كورنيش المدينة البحري و يتعرج الطريق يمينا ليأخذ البحر الطرف الأيسر بينما تصطف على يمينه محلات الطعام و المقاهي و البارات و مكاتب شركات النقل البحرية و الجوية الصغيرة، ليتعرج بعدها أيضًا يسارًا مكونًا ما يشبه

الخليج على يمين الميناء تستقر فيها السفن ريثما تمتلئ بالركاب يوميًا لتعاود الانطلاق.

استنزفتنا الجزيرة خلال الأيام الخمسة و التي بدت كأنها أشهر، فصرفنا حوالي ال **900** دولارًا ما بين أكل و شرب محدودين جدًا و حجز فندقي لليلة واحدة قبل السفر و بطاقات البواخر لي و لابني و لأخي.

كان من المفروض أن نصرف هذا المبلغ على الطريق، و لكننا اضطررنا رغم كل المحاولات للتوفير و الاعتماد على وجبة طعام واحدة يوميًا، الأمر الذي كان سهلًا لأننا فقدنا شهيتنا تمامًا كنا نأكل لنستمر فقط و عندما نتذكر.

انعدم الإحساس بالوقت لدى الجميع و لم يكن أي منا يميز الأيام إلا بمقدار معرفة فيما إذا كان سيتم إنجاز أية أوراق في ذلك اليوم أم لا،

و خلال الأيام التي أمضيناها على الجزيرة قامت مظاهرة، حاولت توثيق أغلب أحداثها و حصلت صدامات ما بين محاولات تنظيم الدور للحصول على ورقة الطرد و محاولات الوصول لمكتب التسجيل و من ثم فشل الشرطة و قوى الأمن بالسيطرة على الوضع في وجود كل ذلك الكم الهائل من اللاجئيين غير المتوقعين، كان عدد سكان الجزيرة حوالي الثلاثة آلاف و عدد الواصلين يفوق الأربعة أو خمسة و عشرين ألفًا.

تأقلمنا في الأيام التالية مع الوضع، تعرفنا على المعالم و أفضل مواقع النوم، حاولنا في أحد الأيام الذهاب للمخيم بعد أن أقنعتنا الشرطة أنهم

سيقومون باستخراج أوراقنا من هناك و بعد أن تم حشر الناس في باصات بعد تدافع و تدفيش و صدام مع الأمن و يأس رجال الشرطة من جعل الناس يصعدون الباص بطريقة حضارية و إنسانية، و بعد أن وقفت مع مجموعتي نراقب مأساة الصعود للباص للذهاب للمخيم لساعتين تحت الشمس، انتهت بأن قررنا أنه لا يمكننا أن نفقد الجزء الباقي من إنسانيتنا لندفع الناس و الأطفال كي نصل إلى باص فكنا في كل مرة نرجع للخلف و كانت زهرة تبكي مما تراه.

توجهنا إلى شرطي لنسأله: هل يمكننا الذهاب في تكسي، قال يمكنكم لكن لا يوجد ورقة كي يسمح لكم بالصعود و يمكنكم المشي، و تأكدنا منه أن المخيم يستقبلنا في كل الحالات فمشينا مع اعتراض من البعض أن الطريق بعيد و الشمس حارة.

ما إن خرجنا من الميناء حتى وجدنا باصات أخرى تقوم بنقل السوريين للمخيم مقابل يورو على الشخص و أصبنا بالصدمة لغباء رجال الشرطة في الداخل، كان بإمكانهم أن يخبروا الجميع أن هناك باصات بأجر تحضر كل عشر دقائق في الخارج و بإمكانهم استعمالها إن شاءوا استمرت تجربة المخيم نصف يوم و ليلة و نصف يوم آخر حتى الظهيرة، كانت تجربة قاسية حتى أنني استيقظت من النوم كي أبكي في تلك الليلة لأني شاهدت بعيني ما كنت أسمعه من الناشطين و المقيمين في المخيمات

و لم يكن التعاطف مع الشيء يقارن بألم أن تعيش التجربة ذاتها على الإطلاق.

كان المخيم قذرًا بكل معنى الكلمة بحمام للرجال و آخر للنساء في طرفه مصنوعين من البلاستيك القوي و من النوع المتنقل، كانا في أقصى درجات القذارة و غير صالحين لاستعمال الحيوانات .

و في نهاية المخيمات عدة حمامات مثلها تم إغلاقها من قبل العناية الصحية كما فهمت.

جلست مجموعتنا في البداية على رصيف في مدخل المخيم و من ثم انتقلنا إلى مخيم بخيم كبيرة مقامة من قبل الحكومة على يمين المكان الذي جلسنا فيه و على بعد حوالي المئتي متر كانت صفاء و بلال قد اشتريا خيمتين افترشوهما إلى جانب الخيمة الكبيرة التي أقام فيها أطفال عائلة ما أخذنا إذنهم للمبيت هناك.

كان النوم في تلك الخيمة أسوأ من الرصيف لأن الأرض كانت من البحص و فوقها أرضية الخيمة السميكة التي جعلتها أكثر قساوة.

في نهاية المخيم الذي على اليمين و الذي كان مليئًا بالعراقيين كان هناك حمامات للاستحمام جربتهم وفاء و أخبرتنا أن نستحم فهو الشيء الوحيد الموجود و كان وسخ يومين من السفر و النوم على الأرصفة قد تراكم.

الحمامات كانت حجرات من القصدير كل واحدة حوالي متر مكعب مكشوفة من الأعلى بأنبوب مائي كالدوش أو بخرطوم مياه و ترتفع عن

الأرض المفروشة بالحصى بعوارض خشبية كانت الأرض كلها ماء تجري من أول حمام لآخر حمام، مياه قذرة مملوءة بالأوساخ و البقايا و القناني البلاستيكية الفارغة و بقايا كرتون وورق و مختلف أنواع النفايات.

انتظرت الدور للاستحمام تحت أشعة الشمس.

دخلت واحدة قبلي للاستكشاف و خرجت لتقول أن الحمام لا يصلح أبدًا انتظرت دوري لأنني لم أملك خيارًا آخر.

كان الوضع داخل الحمام شيئًا عجزت و أعجز عن تخيله، فوط أطفال و غيرها متناثرة على الحصى الذي تغطيه المياه بسماكة سنتميترات، ملابس أو شبه ملابس داخلية مرمية، الكثيرون يبدو أنهم استعملوا الحمام كدورة مياه، القليل من الذباب، كانت خياراتي معدومة ووجدت حجرين كبيرين مرتفعين فوق القذارة وضعت أقدامي فوقهما.

استغرق مني خلع الملابس أكثر من خمس دقائق كي لا أقع أو أسقط أية قطعة من ملابسي و استغرقت خمس أو سبع دقائق أخرى للبسهم و استغرق الحمام دقيقة و نصف فقط، كانت حمامات الرجال على الطرف الآخر للديلوكس غرفة قصديرية و العادي خرطوم مياه في العراء يقومون بالاستحمام بالشورت فيه بسرعة.

عندما سألتني زهرة التي انتظرتني في المخيم كيف الحمام و شعوري بعد الحمام، أجبتها: أووووووووه غير شكل، لكنك لن تحتملي المنظر فلا

تذهبي أو حاولي أن لا تستعملي الحمام الأوسط، أنا اضطررت لأن الدور على الحمامات الأخرى كان طويلًا و كنت مرهقة.

حاولنا خلال اليوم في المخيم تنظيم الناس في قوائم أو لنقل أن أخي و الشباب حاولوا و أخبرنا الكثيرون أنهم قاموا بذلك مسبقًا و فشلوا و لكننا حاولناو تحدثنا معهم أنه من الأفضل أن نحاول التنظيم، على الأقل للتخلص من هذا الوضع المزري.

في وقت ما كانت زهرة ووفاء تسألانني ماذا لو كانوا ينهون أوراق من تبقوا في الميناء الآن ماذا لو خدعونا بإحضارنا إلى هنا؟ فأخبرتهم بأن سننتظر حتى الصباح التالي و إن لم يحصل شيء نعود هناك، إذ أن وضع المخيم كان أبشع، في المساء اتجهت مجموعة غاضبة أرادت أن تقوم ببعض العمليات التدميرية في المدينة لربما تحصل على نتيجة فقد قام الأفغان قبلها بيوم بتجربة كهذه، لتخلو منهم الشوارع في اليوم الذي تلاه فجأة، كان أحد قادة الحشد الغاضب شابًا في حوالي السادسة عشرة وضع في جيبيه الأيمن و الأيسر حجرين كبيرين، و كانوا ينادون بغضب، "يلي ما بينزل ما فيه ناموس" أوقفت الشاب و أنا أصرخ أن هذه ليست طريقة و بالقليل من التنظيم سنحصل على شيء في النهاية ، فلعب لسانه بشكل شوارعي ليجيبني بأنه سيقوم بالتكسير للحصول على ورقة الطرد فقد مل و تعب من الانتظار، كانت طريقته وقحة، فأخبرتهم جميعًا أن يذهبوا للجحيم، شيء ندمت عليه صباح اليوم التالي عندما اكتشفت أن أحدًا

لم و لن يأتي سوى بعض المصوريين و الصحفيين فجهزنا أغراضنا ظهر اليوم التالي لنقوم برحلة العودة إلى الميناء.

كنا نتردد على المقاهي القريبة لشراء الطعام و لكن لم يسمح لنا باستعمال التواليت أبدًا، و كان المكان الوحيد الذي يسمح للجميع بالوقوف في طابور لاستعمال الحمام هو بار كبير مفتوح على الشوارع من النوع الذي هو قهوة في النهار و بار في الليل، كل السوريين الذين قدموا إلى متليني لهم ذكريات في طابور ذلك البار الذي لم أحفظ اسمه، الطابور الذي سمعت الكثير من القصص و أنا واقفة عنده.

كنا نشحن جوالاتنا في أحد المقاهي بالدور لطمأنة الأهل و قلما كنا نتمكن من ذلك.

كان الميناء في ذلك اليوم قد خلا فعلًا من الأفغان و انتشرت إشاعة أنهم فتحوا لهم السفن بعد أعمال الشغب بالأمس ليتخلصوا منهم بعد أن نقلوا السوريين كلهم للمخيم.

في هذه الليلة اخترنا موقعًا استراتيجيًا للنوم، فخارج الميناء و مقابل المحلات تقبع بارجة حربية قمنا بفرد أمتعتنا على الطريق الملاصق لها و خلفنا الشارع و على الطرف الآخر المقهى الذي يحتوي على حمام في حال احتجناه و كانت أصوات الموسيقا تملأ المكان و رؤوسنا جميعًا باتجاه البارجة التي فيها بعض الجنود يقومون أحيانًا بالصعود للسطح للنظر إلى الشارع و معهم كلب صغير كان يكتفي بالتحديق بنا بشماتة.

في الرابعة صباحًا أيقظنا فيصل الرقاوي بطريقة مرعبة ليجعلنا نركض خلفه لداخل الميناء فقط ليخبرنا أن أحدهم يمكن أن يأخذنا إلى مخفر بعيد و يستخرج لنا الورقة مقابل مبلغ مالي حوالي **200** يورو، رفضنا ذلك لغلائه و لعدم ثقتنا بموضوع أن نذهب ونعود في شاحنة أو فان، و أمضينا الليلة على رصيف المينا مرة أخرى بين آلاف الرؤوس النائمة لنستيقظ في اليوم التالي على إشاعة وجود ورقة طرد يتم بيعها و تصويرها و حجز الباخرة عن طريقها.

كنا قد عانينا من سماسرة الورقة خلال هذه الأيام و الكثير من الكذب حول إمكانية أن يقو م أحد ما بتزويرها لنا أو استخراجها.

الإشاعة الأخيرة بدأت بقدوم فيصل لي و أنا جالسة في المقهى ، ليخبرني أنه تمكن من شراء ورقة مضروبة و أنه قد يساعدنا بشراء مثلها لنسافر بمبلغ **200** يورو ، كان ذلك بعد عدة أيام من مشروعه الأول.

أخبرته أن يستفسر لأكتشف بعد قليل أنه يسمسر على الورقة ليبيعها ب **250** يورو للناس اليائسة فنظرت إليه بطرف عيني نظرة فهمها جيدًا.

كُنْتُ أجلس مع زهرة أشحن الموبايل، مر حسين سريعًا ليخبرنا أنه ربما توصل لحل، كانت قصة الورقة قد انتشرت مع نسخ مجانية قليلة جدًا في الشارع و قد تفرق الناس إلى مجموعة تقوم بنسخها و بيعها و آخرين

يقومون بنسخها لأنفسهم فقط للسفر و للخلاص من هذه الجزيرة الملعونة.

عاد حسين بعد ساعات ليخبرنا أنهم فشلوا في إيجاد محل يقوم بالتصوير الملون لهم، حيث أن الختم كان ملونًا، أنس القامشلاوي كان من حصل على نسخة و كان باسم شخص يدعى رمضان، قام على أساسها بحجز بطاقة في الباخرة في نفس الليلة له إلى أثينا ثم عاد ليأخذ صفاء بنفس الورقة لتحجز لنفسها، كانت المشكلة أن كليهما يجب أن يملك نسخة عند مدخل السفينة، لففنا وسط الجزيرة حوالي العشر مرات ذهابًا و إيابًا في محاولة للعثور على تصوير فوتوكوبي، المحلات التي كانت تساعد بتغيير الأسماء و نسخ الورقة أغلقت بعد أن ازداد الازدحام عليها و بدأت المشاكل على الدور كالعادة، و وجدنا محلًا يتيمًا، دخل إليه أخي مع حسان في محاولة فلم يصلوا للمقدمة و لكنهم لمحوا عبد الرحمن الشاب الحلبي هناك فأعطوه الورقة و طلبوا منه **20** أو **30** نسخة لنا جميعًا و خرجنا لننتظره على الرصيف بينما اندلعت الحروب بين المتدافعين للتصوير، كان أهم أحداثها غضب من كان على مدخل المحل، و هو شاب عراقي وإخراجه سكين الجيب لأن أحدهم عايره بأنه عراقي أو.. و أخذ الشاب يصرخ كلنا أخوة سوري و عراقي و هذا لا يجوز فقط القليل من النظام لنقوم بالتصوير و يلي بدو يحكي عالعراق سأقتله، لم يكن هناك أية نتيجة سوى

الانتظار، فعدت للميناء لأنتظر أخي و الشباب و نقوم بالتفكير، بعد حوالي ساعة أخرى اتصل أخي ليخبرنا أن عبد الرحمن خرج بعد ساعة و نصف من الانتظار ليخبره أنه لم يتمكن من التصوير و أنهم رفعوا السعر لخمسة يورو لنسخ الورقة و ليعطيه نسخة يتيمة، فأخذها أخي و حسان و عبد الله ابن عم حسان إلى محل بعيد وجدوه و نسخوها مقابل **60** سنت للورقة.

قمنا بتوزيع الأوراق بعد أن قسمها أخي بعيدًا عن الأنظار على عددنا، و أعطينا أفراد المجموعة أوراقهم ثم اتجهنا محاولين إيجاد حجز.

لم يكن هناك أية بواخر غير محجوزة لأثينا و كان علينا الانتظار للأربعاء فرفضنا و سألت عن أقرب رحلة فقالت لي الموظفة هناك إلى كافالا و هي على حدود الشمال تقريبًا، سألت الجميع وافقوا فطلبنا منها أن تحجز لنا، قالت اجمعوا كل الأوراق معًا و بدأت بالحجز،

قالت : أنا لست غبية نحن نعرف أن الاسم نفسه قلنا لها و نحن نعرف و لكن لا حل لتلك الأزمة، كانت التيكيت الواحدة ب **30** يورو و كانوا يقومون بالتلاعب بالحرف الأول من الاسم ثم الاسم الثاني كاملًا ثم العكس..الخ ، كان الحجز في اليوم التالي ليلًا الواحدة و النصف، كان أمامنا يوم للانتظار.

حاولت إيجاد حجز إلى أثينا لأطفال صفاء لأن أحدهم أخبرها أنها يجب أن تحجز للصغار ببطاقات منفصلة و كانت رحلتها مع أنس مساء ذلك اليوم، لم نجد بطاقات و قمنا بمحاولة أخرى فحاولت لإيجاد و شراء بطاقات لهم في نفس رحلتنا هي و أنس و الأطفال من جديد فرفض صاحب المكتب.

جلست معها في الميناء بينما انتقل الجميع للمقهى، كانت تتساءل من تصدق فالبعض يخبرها أن الصغار لا يحتاجون لبطاقة و آخرون يخبرونها بالعكس و قد اقترب موعد السفينة فأخبرتها أن تأخذ أغراضها و تذهب لتحاول الدخول فلربما لن تحتاج بطاقات لهم و إن فشلت فنحن في انتظارها في المقهى.

كان منظرها الأخير مع أنس القامشلاوي يمسكون بأيدي الأطفال و يتوجهون إلى مكان الانطلاق، من أجمل المشاهد التي رأيتها، و لم يعودا بعدها.

أثناء توجهي للمقهى كان الناس يركضون في الشارع، سألتهم ما الخبر ؟ فكان الرد: أن هناك لجنة افتتحت في الملعب تقوم باستخراج أوراق طرد نظامية و على الجميع التوجه هناك، فلم أكترث و ذهبت لأحتسي شيئًا فقد كنت سعيدة بورقتي و حجزي و لم أعد أصدق الإشاعات، و كان واضحًا أن الحكومة هي من قامت بنشر الورقة للتخلص من أكبر عدد بأقل الخسائر و فعلًا كان قد سافر الكثيرون منذ الصباح.

في حوالي التاسعة مساء جاء أخي مسرعًا ليخبرنا أن نحمل الحقائب و نركض للملعب فهم فعلًا يقومون باستخراج أوراق نظامية، ركضنا حوالي الكيلومتر، و الحقائب على ظهورنا.

توقف في بداية الطريق باص أقل الأطفال و النساء فقط، نجحت زهرة و عبد الرحمن الصغير ووالده بالصعود و رفضت أن أترك أخي و ابني و تابعنا الركض مع المجموعة. أخبرونا أن دور العائلات أقصر و من الأفضل أن يقف شخص واحد من العائلة بالجوازات و كان هناك باص يسد الطريق، أخذت جوازاتنا أنا و أخي و ابني و جواز حسان و عبد الله ووقفت في الدور في العاشرة ليلًا بينما أخذوا هم الحقائب ليجلسوا جانبًا بانتظاري، كان الوقت قاتلًا ووصلت وفاء لأجدها بعد بضعة أمتار خلفي بجوازها و جواز عبد الحميد و أحمد، كانت قد ذهبت للفندق الذي حجزته أختها إيمان العاملة مع اللجنة الدنماركية للإنقاذ والتي تعمل حاليًا في مدينة أخرى على الجزيرة و التي قدمت لرؤيتها بعد فراق أربع سنوات و كانت وفاء قد أمضت ليلتين أو واحدة معنا على الرصيف و الباقي مع أختها في الفندق هي و عبد الحميد ليأتوا خلال النهار لتفقد الأحوال و الجلوس معنا لإيجاد حل.

الكثير حصل أثناء الانتظار الذي انتهى في التاسعة صباحًا، كان الشباب خلالها يزودونني بالعصير و الطعام و كان هناك فرق ترتدي البرتقالي تقوم بمساعدة الشرطة و توزيع الماء على المنتظرين و قد قام شباب

متطوعون من اللاجئين المنتظرين بالمبادرة بتنظيم الدور بعد يأس الشرطة مقنعين الجميع أننا في موقف لا نحسد عليه و بعضنا قد أمضى أكثر من عشرة أيام على الرصيف فعلينا أن نتساعد للخروج من الازمة. حصلت على الأوراق صباحًا و أنا على وشك الانهيار، كنا في منتهى السعادة و كان حسان و عبد الله خلال الانتظار قد أخذا جوازاتهما و تمكنا من الحصول على أوراقهما.

لم نجد تكسي للعودة ، فمشينا مرة أخرى و أصابع قدميّ منتفخة و ملتهبة.

عدنا للمقهى حيث ذهبت مجموعة لتحاول إقناع صاحب مكتب الحجوزات بتغيير البطاقات لأسمائنا الحقيقية فرفض، و حاولنا الحصول على أماكن جديدة فلم نجد و كان الحل الوحيد أن نستعمل البطاقات بالأسماء الوهمية و أوراق الخروج بأسمائنا و أن ندعي أننا اشتريناها من السوق السوداء، كنت على وشك السقوط و لم يكن أي منا قادرًا على الوقوف فقررنا الحجز في فندق و عندما لم نجد غرف اتصلت وفاء بالفندق الذي تقيم به أختها فأخبروها أن هناك غرفًا و الغرفة الثلاثية ب **70** يورو و قررنا الذهاب و للبقاء لليل.

أوقفنا تكسي تحت الشمس الحارة فسألنا إن كنا نملك ورقة أخبرناه بأننا نملكها و أخرج أخي ورقته فقام بالإشارة لنا بطريقة مستفزة أين أوراق البقية و كان يتحدث بانزعاج و عجلة، قلنا له بالإنجليزية سنخرج

الأوراق فأشر لنا صارخًا أننا يجب أن نجهزها مسبقًا فقلت له أن يذهب للجحيم .

و أمسكت بثلاث أوراق بطريقة هستيرية ألوح بها للتكسي التالي و أصرخ بالإنجليزية لدينا أوراق توقف لتأخذنا لدينا أوراق بطريقة ساخرة فقد أصابني الجنون من حماقتهم، توقف التكسي ليقلنا و يسألني ما هذه الورقة؟ قلت له: هذه ما يطلبوه ليقلونا،فقال جميعكم معكم؟ فلوحنا بها و نحن داخل التكسي و مضى بنا إلى الفندق و البقية في تكسي آخر خلفنا.

كان الفندق يبعد **15** دقيقة و ذو منظر رائع و الغرف على شكل شاليهات حول المسبح منفصلة.

كنا الآن سياحًا بالصرماية فعلًا، تقاسمنا الغرف زهرة و أنا و أخي ، ابني مع شابين و أبو عبد الرحمن و ابنه و شاب في غرفة ثالثة كنا نسمع أصوات بعض من منور الحمامات، الكل كان سعيدًا أنه يستحم و يشكر الله أن هناك أسرة نظيفة، غسلت الملابس المتسخة بسرعة و نشرتهاعلى البلكونة الصغيرة الخاصة بالشاليه بعد أن أخذت حمامًا، ووضعنا الموبايلات كلها لتشحن، قامت زهرة بنفس الشيء و كذلك حسين، و سقطنا نائمين.

استيقظنا في حوالي السابعة، كان الشباب قد سبحوا في مسبح الفندق قبل النوم و الآن الكل يجلس هناك لشرب القهوة، خرجوا تباعًا و أخذت حمامًا

آخر، رتبت أغراضي و لبست ملابس نظيفة أخيرًا و انضممت إليهم.
اتفقنا أن نتحرك في الحادية عشرة إلى الميناء لأن رحلتنا في الواحدة و النصف، أخذنا صورًا و ضحكنا و انطلقنا لأخذ الأغراض بعد طلب تكسيات و أخبرنا صاحب الفندق أنه إن لم ننجح بالذهاب فربما نعود لأن حجزنا مستمر لمنتصف اليوم التالي فلم يعترض.
وصلنا لساحة المينا و افترقنا لشراء بعض الأطعمة و الالتقاء لاحقًا و اجتمعنا في الوقت المحدد مع مئات الآخرين للصعود للسفينة، كنا في منتهى السعادة أن هذا الكابوس سينتهي و كان الطابور طويلًا، التقطنا صور السلفي عند مدخل السفينة و قال أحدهم: مو حلوة نعلق بعد السلفي اتخيلوا يرجعوننا، لم يطل الأمر أكثر من ربع ساعة ليحصل ذلك حقًا، حيث رفض موظف السفينة ادخالنا بأسماء مختلفة عن تلك في ورقة الطرد و عبثًا حاولنا إقناعه أن الورقة هي الأهم لأنها هوية الشخص أما الحجز فهو لمكان على السفينة، فرفض و نزلنا نتحدث الشرطة لكنهم لم يستطيعوا المساعدة، مع العلم أن الآلاف غادرت صباح ذلك اليوم و في اليوم الذي سبقه بأسماء و أوراق و همية.
كانت الثانية ليلًا و السفينة لاتزال تمتلئ بالناس هرعنا للخارج في محاولة إيجاد مكتب سفريات فالموجود في المينا كان لشركة أخرى و كان عليه طابور، في الخارج وجدنا محلًا شبه مغلق صاحبه يتناول الطعام أشرنا له أننا نريد سؤاله و أخبرناه إن أمكنه تغيير الأسماء فقال: أنه ليس

بإمكانه و لكنها ليست مشكلة فلا أحد يكترث و لكننا أكدنا له أننا قد طردنا بسببها من السفينة و سألناه عن إمكانية شراء تذاكر أخرى لنفس المنطقة الآن أو حتى للغد فأجابنا بأنه كله محجوز.

عدنا للداخل في محاولة أخيرة لنجد أن الكثيرين غيرنا فعلًا لديهم مشاكل في الأسماء على التذكرة و مرة أخرى فشلت المحاولة لتنتهي بأخي يمزق تذكرته و حسان يمزق ورقة الطرد التي قمنا بتلصيقها لاحقًا.

أخبرتهم أن نحاول في سفينة أثينا التي كانت الآن تقوم بالامتلاء بالركاب، ركضنا للطرف الآخر لسؤال المكتب داخل المينا و المناوب و المكتظ خارجه بالأفغان الذين يحاولون الحجز، علمنا أن هذه الرحل مليئة و أن الحجز للتاسعة صباح اليوم التالي لأثينا، جلسنا للتشاور بسرعة فأخبرتهم أنني لم أعد أستطيع احتمال هذه الجزيرة و كانت وفاء تريد انتظار رحلة كافالا و التي يمكن أن تكون بعد يومين لأن الأماكن ممتلئة، بعد حوار سريع قررنا الحجز معًا لكن الطابور كان طويلًا جدًا، اقترحت أن نجرب المكتب الذي كلمنا صاحبه قبل قليل فقد بدا أنه مناوب، هرعنا إلى المكتب و كان فعلًا قد فتح أبوابه، كانت الثالثة ليلًا، دخل أخي و عبد الحميد للاستفسار، كانت لديه أماكن في رحلة الصباح لأثينا، و قمنا نحن الستة عشر شخصًا بالحجز للتخلص من جزيرة متليني، فقد انضم إلينا ثلاثة ممن فقدناهم خلال التنقل و كانوا بانتظارنا لأنهم لا يريدون أن يكونوا وحدهم كانوا ثلاثة رجال من رفاق البلم.

قررت وفاء و عبد الحميد العودة للفندق لقضاء ثلاث ساعات حتى الصباح و كانت زهرة تريد الانضمام للعودة للغرفة التي تركناها لتنام قليلًا و لكنها خشيت أن يرفض صاحب الفندق فأخبرها عبد الحميد أنه سيسأله عند وصولهم و يتصل بها، و فعلًا رفض صاحب الفندق ذلك فأمضينا الليلة أو الثلاث ساعات الباقية حتى الصباح على كراسي أحد المقاهي المغلقة و افترش بعضنا الأرض لينام و نحن محاطون بالأفغان الذين ظهروا فجأة مرة أخرى في الميناء.

في السادسة و النصف استيقظ النائمون على عواء بعض الكلاب المفاجئ حولنا و انطلقنا لتنضم لنا وفاء و من معها و بعد انتظار طويل تفرقنا أثناء الصعود بسبب الازدحام و التقينا في السفينة، كان حسان غاضبًا لأن أحدًا لم يقم حتى بالنظر إلى الورقة أو الحجز فقد اكتفى من قام بإدخالنا بتمزيق الجزء السفلي من التذكرة و السماح لنا بالمرور.

أثناء الانتظار في طابور السفينة قبل الصعود كان أحد الصحفيين يقوم بتصوير الحشود اتجه نحونا و سألنا فيما إذا كان أحدنا يتحدث الإنجليزية فأجبته نعم كلنا، يسألني إن كنت أقبل أن أقوم بلقاء مسجل صغير، و سيقوم بتصوير الجزء الأعلى فقط من الوجه و المغطى بنظارة الشمس و من الجانب كي لا يمكن تمييزي فوافقت، كانت أسئلة عن تجربة القدوم و إلى أين ذاهبة و ما حصل معنا في الجزيرة و لجنة تخليص

الأوراق و فيما إذا تم التعامل معنا بعنصرية هنا و ما الذي نطمح إليه بسفرنا، كان لقاء لحوالي السبع دقائق حاولت أن أكون حيادية خلاله و رفضت إعطاء اسمي، لوكالة فرانس نيوز.

الشعور الوحيد لدينا كان الارتياح بالخلاص من هذا المكان أخيرًا .

كان ذلك صباح الأربعاء التاسع من سبتمبر من عام **2015** .

كانت الأعداد هائلة أمام الباخرة التي من المفترض أن تقلنا إلى أثينا و أمامنا اصطف عدد من رجال شرطة الميناء و مصورين و صحفيين و أشخاص من العاملين على الباخرة يقومون بأخذ جزء من التذكرة و آخر يقوم بإعطاء ساندويشًا و قارورة ماء صغيرة ثم يرسلوننا إلى الداخل عبر كراج شحن السيارات في الأسفل.

تفرقنا خلال الصعود مع محاولتنا البقاء مع بعض و لكن الشرطة لم تكن تسمح بمرور أعداد كبيرة مع بعضها و كانت الباخرة ضخمة و جميلة و لكن الأعداد الهائلة منعت العاملين من إمكانية تنظيم الجلوس حسب رقم المقعد و الحجز فجلس الذين دخلوا أوّلًا في أماكن أفضل فيها إمكانية للنوم، و قبل أن تنطلق الباخرة وجدنا بعضنا البعض لكننا بقينا في مقاعدنا و غرقنا لفترة في النوم.

استيقظت للذهاب إلى الحمام الذي قامت الحشود بتدميره و توسيخه بسرعة هائلة، كانت هناك نماذج بشرية موجودة على السفينة لم أتصور

وجودها من قبل، الكثيرون جلسوا في طرقات الباخرة الفخمة بجاني فيش الكهرباء لشحن الموبايلات و الكثيرون فضلوا افتراش الأرض المكسوة بالموكيت بجانب المقاعد لأنها أكثر راحة للنوم خاصة بالنسبة لمن أمضى ليالي على الأرصفة .

البعض بدأ بشراء المأكولات الخفيفة و القهوة و الشاي من الكفتريات الصغيرة و التي كان عددها اثنين حسب ما رأيت ، اخرون صعدوا إلى السطح للاستمتاع ببعض الهواء النقي. كل المجموعة علمت بأنني أقوم بتوثيق الرحلة و كل واحد منهم يسألني هل وصلت لي؟ فأسأله: متى تعرفت عليك أول مرة ليكون الرد: في الشاحنة، و لكنني كنت أجلس في الأمام فلم أرك حتى وصلنا الشاطئ أو عند الوصول للجزيرة ، كان حدثًا هامًا للغاية بالنسبة لنا جميعًا.

سألني أنس الحلبي في الباخرة هل وصلت لي؟ أخبرته بأنني فعلت، و لكني نسيت أن أذكر أنه ضاع عن أخيه في أزمير عندما جاء مع المجموعة الخطأ و التقيا بعد وصولنا إلى الجزيرة بساعات إذ أنه كان في البلم الذي أتى خلفنا.

توقعنا أن تستمر الرحلة ل **12** ساعة لذلك أصبنا بالدهشة عندما أعلن الكابتن أن أمامنا ثلث ساعة للوصول و ذلك بعد ست أو سبع ساعات فقط من انطلاقنا و أن علينا النزول للأسفل.

الفرحة عمت المكان، و تجمعنا أسفل السفينة ، لحوالي ربع ساعة

و عندما بدأ الكابتن بفتح باب الشحن قليلًا من الأعلى استعدادًا لأنزله، علا التصفير و التهليل فرحًا بالقدوم خطوة نحو الأمام، كان شعورنا تمامًا كالمهاجرين إلى أرض الميعاد.

خمس أو عشر دقائق أخرى و تم فتح باب السفينة لنجد طبعًا مصورين في استقبالنا كنت قبلها بدقيقة أمزح مع المجموعة بأنني لن أنزل إلا إن استقبلني المصورون و الصحفيون فضحكوا عندما شاهدنا المصورين، نزلنا لتدلنا الشرطة على باصات نقلتنا إلى آخر الميناء، استطعنا الصعود في باص واحد بسرعة متبعين صفارة عبد الحميد المعلقة في رقبته منذ بداية الرحلة في أزمير و التي وجدنا لها هدفا أخيرًا.

فقدنا اثنين خلال رحلة الباص، كنت قد تمنيت أن نضيعهما لأنني لم أشعر بالارتياح لهما و لأن أحدهما على حد كلام زهرة، حاول الإمساك بيدها خلال رحلة الفان في أزمير و أنها لم تعتقد بأنه كان يحاول المساعدة، بكل الأحوال أعتقد أني شعرت بالارتياح لضياع ذلك الشخص.

نزلنا من الباص لندخن و نلتقط أنفاسنا و نفكر بطريقة الانتقال إلى الساحة التي أخبرنا عنها من سبقونا لنأخذ باصًا إلى حدود مقدونيا فسمعنا رجلًا ينادي على رحلة إلى الحدود ب **50** يورو اتفقنا معه، كان سوريًا و معه ولده في حوالي العاشرة و يبدو عليه الطيبة و النظافة قام بجمع مجموعتين، نحن إحداهما و قادتنا إلى محطة المترو، أخبرته أننا

بحاجة لتصريف نقود فأجابني أننا سنفعل لاحقًا لأننا بعيدون عن مركز المدينة حاليًا و لكننا سنكون هناك قريبًا لأخذ الباص المحدد.

تبعناه إلى المترو، أخبرنا أننا سنركب في كابينة واحدة و كانوا يسمحون بصعودنا دون تذاكر بينما يقوم أهالي البلد بقطع تذكرة و من ثم إدخالها في ماكينة التأكيد عند الصعود للمترو.

لم يكن هناك شريط فاصل أو أحد لمراقبة ذلك بل كان بإمكانهم المرور دون تذكرة لكنهم كانوا منظمين و ملتزمين ذاتيًا.

نزلنا من المترو بعد عدة محطات لنمشي قليلًا، وصلنا لمكتب الحجز، أخذ منا أوراق الطرد، قام بأخذ من أراد التصريف لمحل تصريف ثم عدنا لتناول برياني من مطعم باكستاني مقابل للمكتب و لشحن الموبايلات، كنا سعداء جدًا لتناول الأرز بعد كل هذه المدة من السندويشات. صعدنا في الباص بعد أن أعاد لنا أوراقنا و أخذ ثمن التذاكر، و أعطانا إيصالًا بالمبلغ لكامل المجموعة و باسم المكتب، و قبل الانطلاق صعد شخص آخر من المكتب يتكلم اليونانية بطلاقة ليعطي تعليمات للسائق ثم قال لنا بالسوري: سيتجه بكم الباص لحدود مقدونيا،كنا نقوم بإنزال الركاب قبل **7** كم في أوتيل الهارة لأن البوليس لم يكن يسمح للباصات بالتقدم و كان عليهم المشي، و لكنهم سمحوا بالتقدم حتى الحدود منذ فترة، فتقوم الباصات بالإنزال هناك، الآن الوضع حسب الازدحام سيتم

إنزالكم و نرجو أن يكون ذلك على الحدود ستستغرق رحلتكم سبع ساعات و ستتوقفون في استراحتين، حظًّا سعيدًا و الله معكم.

****

وصلنا إلى ميونخ ألمانيا في حوالي الساعة الخامسة مساء من يوم الأحد الثالث عشر من سبتمبر **2015** كانت الرحلة في منتهى الصعوبة و مفعمة بالأحداث و التي اكتفيت بذكر الأحداث الرئيسية منها.

أوصلنا الباص إلى الحدود المقدونية على بعد مسافة حوالي الكيلو متر و ذلك بعد سبع ساعات تقريبًا، كانت السماء تمطر بشكل خفيف و كان علينا النزول للمشي إلى الحدود على الطريق العام، نزلنا من الباص تباعًا و لم يكن معنا ستر مطرية و لا شمسيات و لا حتى ملابس شتوية.

القليلون ارتدوا سترًا لاتقاء المطر، و حاولنا الاحتماء بقطع من الملابس لاستخدامها كشمسية، كان البعض لا يزال يخرج الحقائب من الباص و إلى أن اكتمل العدد و بدأنا المسير كنا قد تبللنا بما فيه الكفاية، كانت الحرارة تتناقص شيئًا فشيئًا.

كلما اقتربنا من المنطقة الحدودية، ازدادت الرؤية وضوحًا إذ كنا نستعين بمصابيح الشحن اليدوي و بدأت تظهر لنا خيام بلاستيكية و نيران تخييم و أعداد هائلة من الناس في الانتظار.

قبل أن يتوقف بنا الباص أوقفنا شرطي قبل الحدود بقليل ليعطينا قطعة ورق عليها رقم المجموعة التي في الباص، كان رقمنا مع من معنا في الباص **300**.

أعداد لا متناهية من المهاجرين تحت المطر و الطين و الشرطة تحاول تنظيم الخروج دون طائل، تمسكنا ببعضنا كي لا نضيع و نسينا أمر الورقة إذ لا مجال للنظام و لا بأي شكل هنا ، كانت هناك أصوات ضائعة تنادي بأرقام المجموعات في محاولة للوصول إلى مجموعتهم التي تاهوا عنها.

وصلنا بطريقة الدفع من الخلف إلى شريط الشرطة الفاصل و الطين يصل الركب و تمكنا من المرور جميعًا بصعوبة.

كنا في كل مرحلة نفقد اثنين من المجموعة ثم نعاود اللقاء به في مكان آخر أو دولة أخرى و في هذه المرة كان دور عبد الحميد ووفاء التي ادعت أنها حامل بعد أن وضعت حقيبة صغيرة تحت ملابسها للمرور.

و بعد مرورنا من هذه النقطة، مشينا قليلًا لنصل إلى نقطة الدخول لمقدونيا و التي كانت عبارة عن سور يفتح كل قليل لإدخال عدد معين إلى خيام للعناية الصحية و من ثم إلى باصات لإيصالهم إلى حدود مقدونيا صربيا.

عبور مقدونيا كان أسهل عبور، لم نستطع الوصول للسور، فقط وفاء و عبد الحميد تمكنوا من ذلك و بعد محاولات فاشلة للشرطة لتنظيم الموضوع خاصة لأجل الأطفال، كان المطر ينهمر بغزارة و الجو يزداد برودة، و أحد الأطفال يصرخ لأنه لم يعد يستطيع الشعور بقدمه و أمه

تحاول فركها له، صوت الأسنان تصطك من البرد و صراخ الأطفال كانا يملآن المكان.

في محاولة ناجحة أمرتنا الشرطة نحن الذين في الخلف بالاستدارة و اللحاق بهم اثنين اثنين و درنا دورة حول السور لمكان بعيد ثم عبرنا جسرًا لنصل إلى مكان مليء بالباصات، قاموا بسرعة بعد الأشخاص لكل باص، و أخبرونا أن الباصات ستوصلنا إلى الحدود التالية.

قمت و زهرة بتبديل الملابس بما تبقى من ملابس جافة معي، بعد أن قام الشباب بفرد غطاء لإحاطة المقعد الذي جلسنا به.

حاول الجميع إيجاد ملابس جافة في حقائبهم الأمرالذي لم يكن سهلًا ، ثم سقطنا نائمين حتى الحدود.

أوصلنا الباص إلى منطقة السكة الحديدية، مشينا حوالي **300** متر لنصل إلى بساتين شاسعة حيث حاولت الشرطة الصربية تنظيم الدخول إلى مكان نصبت فيه خيم للصليب الأحمر لمن يحتاج العناية و من ثم لمتابعة المسير، وقفنا قليلًا في الدور و لكن كالعادة لم يكن هناك التزام و بما أن البساتين كانت مفتوحة قمنا بفتح الجي بي اس لمعرفة موقعنا بالضبط و كانت القرية الحدودية قريبة جدًا منا، فقمنا بالانفصال عن بقية الناس و السير في اتجاهها، مع مجموعات أخرى قامت بنفس الشيء، مشينا ضمن الزرع لمسافة لا تقل عن الكيلومترين حتى وصلنا للقرية لنجد بعضًا من الأهالي أخبرونا أن محطة الباص قريبة، أكملنا المسير

لنجد مجموعة من الشباب الصربيين من متطوعي إنقاذ اللاجئين يتحدثون العربية.

أخبروا العائلات أن تقوم بانتظار الباصات التي ستقلهم إلى مكان الحصول على ورقة الطرد و أخبروا الشباب أن يكملوا المسير، وأن المسير سيكون لحوالي ساعتين.

قمنا بالانتظار قليلًا على أساس أننا عائلة واحدة لكن كان هناك العديد من العائلات و الأطفال فقررنا المتابعة، و كان قرارًا خاطئًا، إذ بدا الطريق بلا نهاية.

على طول الطريق انتشرت تاكسيات خاصة كانت تأتي بسرعة لأخذ الناس بسعر **20** يورو للشخص، بصعوبة وجدنا تاكسي رضي بأخذنا مقابل **10** للشخص، التفت أبحث عن ابني فلم أجده، كان يسير مع بقية الشباب و فجأة لم أجده، أخبرنا التكسي بأننا سنعود قليلًا للبحث عن شخص معنا، عدنا لمسافة لا بأس بها فلم نجده ضمن المسير، فأكملنا الطريق، كنا عبارة عن تكسيين، عند الوصول للنقطة، وجدت ابني هناك مع البقية، أخبرني بأنهم استقلوا تاكسي و شاهدونا نصعد فعلم أننا سنلتقي هنا.

النقطة الحدودية الصربية، و الوقوف في الدور مرة أخرى لحوالي ثلاث ساعات تحت المطر كانت ذكرى تعيسة، لم ينتظم الدور و أصيب أحد رجال الشرطة بالجنون ليقوم بضرب البعض بشكل خفيف، مللت الوقوف

فأخبرت أخي أنني سأتوجه إلى أحد المقاهي الموجودة مقابلنا على الطرف الآخر من الطريق الضيق.

توجهت هناك و طلبت كأسًا من الشاي لأكتشف أن الشاي الصربي هو كركديه ساخن و سألت إن كان لديهم إنترنت مفتوحًا، بسرعة أخذت كلمة السر و بالمتبقي من الشحن في جهاز التاب تواصلت مع رافع لأسأله إن كان بإمكاننا الخروج من هذا المكان و مدى أهمية ورقة الطرد، أخبرني أن الورقة مهمة فقط لحجز فندق فأخبرته أنه يوجد العديد من باصات البولمان هنا و لكنهم رفضوا أن يأخذونا إلى بلغراد دون الورقة، طلب مني الانتظار لليل و الذي لم يكن بعيدًا و أننا يمكن أن نعرض مبلغًا ماليًا أكبر و أن نتجنب التكاسي بسبب المافيات و التشليح، حيث كانت التكسيات تقل مجموعات مقابل **700** يورو و يقوم البوليس بإيقافهم بعد مسافة معينة لإعادتهم أو تقوم مجموعات تشليح بإيقاف التكسي بعد مسافة لأخذ ما يملكون و ضربهم.

كان معي في المقهى أبو عبد الرحمن، أخبرته أن يذهب لإحضار الجميع من الدور و أخبرتهم بأن نحاول مع الباصات مرة أخرى.

كانت أجرة الباص **25** يورو نظاميًاللشخص، بعد محاولات عديدة و انتظار في البرد والكثير من الوعود الكاذبة، تمكننا من أخذ باص من طابقين كان قد تم إصعاد العديدين إليه قبلنا و ركنه في مكان بعيد قليلًا

عن مكان تجمع الباصات الرئيسي، كالعادة صعدنا بسرعة، و أغلب الظن أن الباقين في الباص لديهم أوراق نظامية.

غفونا لنستيقظ على صوت السائق للنزول من الباص، كان الوقت حوالي منتصف الليل.

حلم صغير بعد حوالي شهر و نصف من تلك اللحظة، حلم بقبلة تبادلتها مع شخص ما، قبلة من التي تجعلك تحلق و تشعر بقدميك ترتفع في الهواء و التي تبقى دائمًا و أبدًا في الأحلامِ فقط، هي التي جعلتني أكمل هذه القصة.

فعندما استيقظت من ذلك الحلم كان شخص الحلم أول من تواصلت معه للاطمئنان عليه و هو الذي تربطني به علاقة مهنية تمامًا، كان مختصر الحديث بيننا هو تشجيعه لي على استمرار كتابة القصة و التي توقفت عندها في هذه النقطة بالذات.

اتبعت النصائح التي أعطانيها قبل أن أعود لتنقيح ما كتبت و مواصلة الرحلة، و بالتأكيد لم أخبره عن الحلم.

نزلنا من الباص لنجد الكثيرين يحاولون استقلال تاكسي للوصول إلى فندق ما و البعض يتحدث عن أنهم نصابون، لم يكن لدينا خيار فقد كنا على وشك الانهيار من التعب.

أخبرني أحدهم أن محطة القطارات قريبة جدًا و لكني لم أنصت.

اتفقنا مع ثلاث تكسيات لأخذنا إلى أوتيل أو هوستيل قريب و خرجوا بنا خارج المدينة للتوقف في مكان مريب، تشاورت مع البقية و اتفقنا على العودة و عندما أخبرنا السائقين قالوا لنا: لماذا؟ سيأتي الآن باص ليأخذكم إلى أوتيل و عدادكم حتى الآن مائة يورو لكل سيارة، كان الوضع مرعبًا و أصررنا على العودة إلى محطة القطارات، و كانت حصيلة تلك الليلة خسارة مئتي يورو في كل سيارة، و نزلنا نحن قرب محطة القطار و الآخرون نزل كل منهم في مكان قريب و التقينا جميعًا في المحطة مرة أخرى.

كانت المحطة شبه فارغة فيها بعض أجهزة الهاتف المدفوعة المعلقة على الحائط و محل لبيع السجائر و البسكويت و مقهى صغير و نوافذ لبيع التذاكر و أخرى لتبديل العملات، قمت بنشر بعض الملابس المبلولة على أطراف نوافذ البيع المغلقة و جلسنا على الأرض بانتظار الصباح.

اختفت زهرة لأجدها تتحدث مع مجموعة غريبة تجلس في الساحة الداخلية لرصيف القطارات و تقوم بشحن الهاتف، كانت تختفي طوال الرحلة و نقوم بالبحث عنها كي تعود للانضمام للمجموعة، خوفًا عليها. ووجدت أنها قد التقت في المحطة بأحد أصدقائها و هو الذي كانت بانتظاره في أزمير، و بقيت معه لوقت خلال الرحلة حتى انفصل عنا هو الآخر في مكان ما.

مع الصباح و فتح أول النوافذ قمت بجمع الملابس المنشورة و استبدال بعض الدولارات بالعملة الصربية لأنهم لا يقبلون التعامل بغيرها داخل البلد، لشراء الملابس و التذاكر إلى النقطة التالية، و اتخذنا موقعًا داخل المقهى.

تركنا أحدنا و هو أبو عبد الرحمن عند الحقائب و توجه آخرون لشراء ملابس جافة و جوارب ووجدنا أحد مكاتب مساعدة اللاجئين في طريقنا حيث حصلت على حذاء و قميص دافئ و لم يحصل الآخرون على شيء و قمنا بشراء ملابس و ستر مطرية و تجولنا قليلًا ثم عدنا للمقهى لنأكل شيئًا و نشحن الموبايلات و نستخدم الإنترنت لنطمئن الأهل، كنا نتبادل الأدوار فمن انتهى من التسوق يعود ليبقى و يذهب غيره و هكذا.

أبو عبد الرحمن مع ابنه ذي التسع أعوام ربما، كان شخصًا هادئًا جـدًا و مسالمًا، نفس الشحاطة في قدميه و قدمي ابنه منذ بداية الرحلة، كان هاربًا من ريف دمشق و قد فقد طفلين تحت القصف و ترك ثالثًا مع الأم في المباركية، و هو اسم قريتهم.

كان أبو عبد الرحمن مع قرار الأغلبية مهما كان و في أي وقت و في صمت، و كان يريد التواصل مع قريب ما له بالهاتف لإرسال نقود له لأنه على وشك الإفلاس و قد كتب الرقم على قطعة كرتون صغيرة أخفاها في سترته.

قمنا بشراء كرت للهاتف المدفوع و اتصل بصديقه لإرسال النقود التي لم أعد أذكر أين استلمها، و كلمت أخي في قطر لأطمئنه و لإخباره أننا سنستدين نقودًا فلربما احتجنا أن يرسل لنا مبلغًا إضافيًا فيما بعد، و اتصل أنس الحلبي بأخيه ليطمئنه و كان قد التقى بأخيه الآخر الذي أضاعه في البلم في جزيرة متيليني.

فعلًا قمت باستدانة مبلغ احتياطي من حسان الذي أصرّ طوال الرحلة أن يمسك بيدي لأنني أذكره بأخته الكبيرة.

حسان دكتور في الجامعة لم أعد أذكر اختصاصه ربما تجارة، كان قد أخذ الدكتوراة و يقوم بالعمل كمحاضر في الصين، كان عليه العودة في وقت ما للعمل في سورية، و لم يكن يريد ذلك، فاتفق مع ابن عمه عبد الله و الذي يقيم في حمص على القيام بهذه الرحلة متجهين إلى السويد.

قمنا بإرسال أحدنا إلى محطة الباصات القريبة لحجز باص إلى أقرب مدينة للنقطة الحدودية التالية، وكان علينا أن نستقل باصًا آخر من تلك المدينة القريبة إن أردنا الوصول لأقرب مكان للحدود الصربية الهنغارية"هورغوس".

من ثم توجهنا هناك جميعًا عندما حان وقت الرحلة،كان الوقت يداهمنا إذا انتشرت إشاعة على الإنترنت مفادها أن السلطات الهنغارية ستقوم بإغلاق الحدود و التي كانت قد فتحتها أمام حشود اللاجئين منذ فترة قريبة بعد الشكاوى من سوء معاملة الشرطة الهنغارية لمن تقبض عليه

من المهاجرين للمنظمات و بعد أن قامت ألمانيا بطلب تسهيل الإجراءات للراغبين بالوصول إلى أراضيها من السوريين الهاربين من الموت و قد حدد موعد الإغلاق بالخامس عشر من الشهر الحالي.

خلال ذلك الوقت و الذي أمضته وفاء و عبد الحميد في فندق ما وجداه في الليلة السابقة بعد المغامرة المشؤومة و الذي رفضنا أن نذهب إليه خوفًا من خسارة المزيد من النقود و تلف الأعصاب، كانا يتواصلان مع أخي عبر الواتس لمعرفة مكاننا و الانضمام لنا للمتابعة، و فعلًا خلال ساعة كانا معنا متلهفين.

لم أعرف كيف أمضيا ليلتهما في ذلك الفندق و لكنها لم تبد جيدة بالعموم.

رحلة الباص كانت خفيفة مقارنة بالجرعات القوية التي تلقيناها حتى الآن، كانت نقاهة بالنسبة لنا بعد ارتداء الملابس الجافة الدافئة

و احتساء الشاي و شحن الهواتف، كنا نشعر بالترف خاصة مع وجود التواليتات في كل مكان، أصبح من الملزم دائمًا عند وجود حمام أن نقوم باستخدامه حتى و إن لم نحتج لذلك فلربما ندمنا على هذه النعمة في وقت لاحق.

كم تتغير أهمية الأشياء في نظرنا مع اختلاف نسبة احتياجنا إليها، أشياء بديهية نقوم بها يوميًا و لا نشعر بأهميتها إلا عند فقدانها، الدفء الشبع، وتوافر الطعام في أي وقت، الاستحمام و إمكانية قضاء الحاجة في

مكان مغلق نظيف مع وجود ماء، وجود فراش و غطاء، و أخيرًا وجود سقف فوق رأسك.

وصلنا إلى محطة الباصات التالية و كان علينا ركوب باص آخر إلى المنطقة الحدودية، لم يكن هناك العديد من السوريين و كان هناك الكثير من الأفغان ذوي الملامح الأقرب للعرق الأصفر، كان الباص القادم هو الأخير لهذا اليوم مع أن الوقت كان تقريبًا بعد الخامسة بقليل، و كان علينا أن نتشارك الباص الكبير و الذي هو عبارة عن باص نقل داخلي مع الأفغان وقوفًا.

لم يكن الطريق طويلًا، و قبل الانطلاق أتى مدير المحطة و أخبرنا بالإنجليزية أنه قد طلب من السائق إيصالنا إلى النقطة الأقرب من الحدود على غير العادة حيث يقومون بإنزال الركاب في مكان أبعد قليلًا، و تمنى لنا حظًا سعيدًا، كان رجلًا لطيفًا جـدًا و فعلًا أوصلنا الباص إلى مكان لم نضطر للمشي فيه كثيرًا للوصول للحدود و رأينا أسراب القادمين على أقدامهم أثناء وجودنا في الباص.

فور نزولنا من الباص، لاحظنا وجود بعض الصحفيين مع كاميراتهم و هم يقومون بتوثيق رحلات الهجرة التي أصبحت نصف شرعية حسب ما رأينا.

كان الصحفي يجري أمامنا مع المذيعة ليقوم بتصويرنا و نحن نضحك

و ننضم للجموع التي تسير مع سكة القطار المتجهة إلى الحدود و كانت هذه النقطة الأهم في الرحلة إذ أن ردود فعل الشرطة الهنغارية كان يختلف من يوم لآخر، مخيماتهم و سجونهم كانت الأسوأ، فكان من الأفضل لنا تفادي المرور عبر الحدود الرسمية و اللجوء للهرب عبر الأسلاك الشائكة..

قمنا أثناء سيرنا على السكة الحديدية بالتخلص من الملابس الباقية في حقائبنا و التي أصيب أغلبها بالبلل و البعض الآخر اتسخ و لا يمكننا الاستمرار بحمله خاصة في هذا الوقت حيث أصبنا بالإرهاق و ربما نضطر للركض و قام البعض بالتخلص حتى من ملابس لا تزال جديدة و لكنها تشكل حملًا إضافيًا.

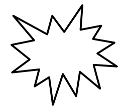
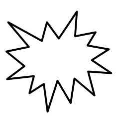
وضعنا الملابس على شكل كومة على طرف السكة فلربما احتاج أحد للاستفادة من الملابس الجديدة عندما تجف، و أكملنا السير.

الفيس بوك، الذي ربما كان له الكثير من المساوئ، لعب دورًا هامًا هنا إذ أن كثرة المهاجرين، و تبادل المعلومات مباشرة من قبل الناس على الطريق عممت خطة الطريق تقريبًا حتى حفظها الجميع ممن أرادوا سلوكه عن ظهر قلب، و التعليمات واضحة للغاية، لا تتعاملوا مع مهرب في هذا المكان لأنهم كاذبون و لصوص، و قد تم رصد عمليات تشليح و ضرب، اسلكوا الطريق الفلاني، لا تذهبوا عميقًا في الغابة كي لا تتوهوا، و الهدف هو الوصول لمحطة البترول على الطرف الهنغاري وراء الأسلاك.

تناقشنا طويلًا حول اتخاذ الطريق الرسمي أو طريق الأسلاك و استقررنا أن الوقت محدود و لا يمكننا المخاطرة فالأفضل محاولة الأسلاك و ليس لدينا ما نخسره إن تم القبض علينا عندها و قام عبد الحميد و الشباب بتحديد النقاط على الجي بي اس و تحديد مكان محطة البترول و انتظرنا قليلًا لحلول الظلام ثم انحدرنا صوب حقول الذرة على جانب السكة الحديدية.

كان الطريق مضحكًا بكل معنى الكلمة، نعم كنا نسير على ضوء القمر محاولين عدم إصدار ضجة و بين أعواد الذرة و الأرض رطبة تحت أرجلنا و نحاول تفادي أضواء الكشافات.

لكننا التقينا بمهربين بين أعواد الذرة ليخبرونا بأننا نسير على الطريق الصحيح و التقينا بآخرين تائهين لينضموا إلينا كما التقينا عند الأسلاك الشائكة بهنغاريين يعرضون علينا تكسي لإيصالنا إلى بودابست بعد أن نعبر السلك الشائك، كان الموضوع مضحكًا للغاية و كأنه نسخة كوميدية لفيلم، استغرق مشوارنا بين الحقول ثلث ساعة بالضبط، قمنا بالقفز فوق السلك الشائك بمساعدة بعض و عبرنا الطريق لنصل إلى محطة البترول واحدًا تلو الآخر، لنجد تكسيات تقلنا إلى بودابست.

بما أنني من يقوم بسرد القصة فلربما أظهرت نفسي بأفضل مما أنا عليه حقًا فجدير بالتنويه إلى أنني فقدت أعصابي عشرات المرات و تشاجرت مع الكثيرين ممن حاولوا الاستيلاء على دوري في الطوابير غير المنتهية التي اضطررت للوقوف فيها عبر الرحلة، و أصبحت مشهورة بين أصدقاء رحلتي بأنني مستعدة دائمًا للشجار مهما كان الثمن.

على طرف محطة البنزين كان هناك عدد من السماسرة يقومون بالتفاوض مع القادمين من أجل أجرة التاكسي و بينهم فتاتان في أوائل العشرينات من العمر، السعر الذي طلبوه استقر على مئتي يورو للشخص و أربعة أشخاص في كل تكسي، أصررت على إنزال السعر لأننا كنا على وشك الإفلاس و كان عبد الحميد ووفاء و الباقون قد صعدوا فعلًا في التكاسي... نزلوا السعر حتى 150 و تشاجرنا حول أننا لن نقوم بالدفع حتى نصل، لاختصار الموضوع أعطيناهم نصف المبلغ و النصف عند الوصول إلى بودابست.

كانت السيارة التي استقللتها مع عائلتي كبيرة، اتسعت لي مع أخي و ابني و عبد الرحمن ووالده و أحمد الدرعاوي و اثنين من الأشخاص الذين كانوا يصرون على الانضمام إلينا مهما حاولنا فقدهم بقصد أو بغير قصد أثناء الرحلة.. انطلقت السيارة بسرعة هائلة و بعد مسافة ، حاول السائق الحصول على بقية المبلغ و حاولنا إفهامه بأن الاتفاق هو الدفع عندالوصول فقام بالاتصال بالفتاة التي كلمتني بأننا سنصل عما قريب

و علينا الدفع لأنه لن يستطيع الوقوف لفترة طويلة.

كان الطريق طريقًا سريعًا و من الواضح أن بودابست لا تزال على بعد أكثر من سبعين كيلومترًا و تقريبًا كان الطريق فارغًا تمامًا فطلبنا من السائق أن يقوم على الأقل بإنزالنا داخل ما بدا لنا مجمع أو سوبرماركت قريب لاحت فيه من بعيد لافتة مشهورة لأحد المطاعم السريعة.

أنزلنا في الداخل بسرعة و انطلق لتقترب منا تكسيات أخرى للمفاوضة على إيصالنا إلى محطة قطار بودابست، و كان من الواضح أنها شبكة كاملة منسقة، رفضنا الذهاب لأن بقية المجموعة لم تكن قد وصلت بعد و توجهنا إلى المطعم السريع.

طلبنا وجبات و فتحنا الإنترنت، تواصلت مع أصدقائي على الفيس للسؤال عن الخطوة التالية و كان الجواب أن نحاول أخذ تكسي مؤمن عن طريق المطعم و فعلًا طلبت من فتاة المطعم ذلك فدخلت للحديث مع مديرها و خرجت بعد قليل لتخبرني بأنه سيقوم بطلب تكسيين ليقلانا و التكلفة عشرون يورو، سيخرج خارج المطعم لأدفعها لهم، خرجت و أعطيتهم النقود و عدنا لنجلس لعشر دقائق ثم توجهنا بعدها حيث أرشدونا لاستقلال التكسي.

كان هناك أحد الأشخاص الذي لم يسمح لنا بالتوجه لداخل الساحة فعدت لأطلب من الفتاة أن تخبر التكسي أننا سنلاقيهم خارجًا في أقرب نقطة للطريق العام.

أول كلام السائقين كان أن علينا أن ندفع الأجرة مقدمًا فأخبرتهم بأنني دفعت للفتاة في الداخل لأكتشف أن العشرين يورو هي سمسرة و علينا دفع **150** لكل سيارة، لم يكن المبلغ كبيرًا بالمقارنة مع الأسعار التي سمعناها من قبل و انطلق التكسي و نحن لا زلنا لم نعرف ماذا أو أين بقية المجموعة و لم نكن نستطيع الانتظار خوفًا من الشرطة و القبض علينا و أخذنا إلى المخيمات.

"أنتم في أمان" جملة أحسسنا جدًا بالاطمئنان عند سماعها من شخص في الأربعينات يرتدي بيجامة رياضية استقبلنا عند محطة قطار الأنفاق فور أن أنزلنا التكسي ، كان حلبيًا و قال ذلك بعد أن سألنا فيما إذا كنا سوريين، "الحقوني لتحت، أنتو بأمان، في كل شيء تحت، أكل و شرب و تياب و كتيرين متلكون، لا تخافوا، ارتاحوا" و بدأ المشهد يتضح أمامنا، ففي البداية شاهدنا بضع خيام بلاستيكية صغيرة داخل الساحات و الطرق المؤدية إلى المترو، و نزولًا لدى وصولنا للساحة، كانت هناك مجموعات هائلة ممن افترشوا الساحة و في وسطها مجموعات من المتطوعين الذين يقومون بتوزيع الأطعمة و المشروبات و الماء، آخرون يفرزون ملابس المتبرعين و يعيدون إعطاءها للمحتاجين، عربات تدور لتوزيع مواد صحية و آخرون في زاوية لإعطاء الأغطية و الكل يبتسم، بعد هذه النقطة ، كان كل شيء سهلًا و مطمئنًا جـدًا.

في بودابست اضطررنا للانتظار بين حشود المئات من المهاجرين حتى تقوم السلطات بتسيير القطارات المخصصة لذلك.

لم يكن الجميع من خلفية اجتماعية واحدة لذلك باءت جهود السلطات بتنظيمهم ضمن مجموعات في كل مرة إلى أن نجحوا أخيرًا و تابعنا إلى النمسا.

مجددًا كان علينا التوقف قبل الحدود و المشي لعبور الحدود مع قوات خاصة و من ثم تحت إشرافهم تم إيصالنا إلى فيينا حيث فقدنا التواصل مع أبي عبد الرحمن و ابنه.

في البداية كان علينا البقاء في وسط المدينة على أن يتم توفير أماكن للنوم لنا، المئات تجمعوا هناك و الكثيرون ممن يقومون بتوزيع الطعام و الأدوات الصحية و الأغطية و غيرها.

تمكنا من إيجاد مكان لأبي عبد الرحمن وولده لقضاء الليل و في الصباح التقينا في محطة القطار حيث اضطرا للمغادرة قبلنا وكانت هذه المرة الأخيرة التي نراهم بها. تابعت مع البقية إلى ميونخ أيضًا في قطارات تم تنظيم سيرها من قبل السلطات و لكن بعد انتظار طويل، كانت القطارات مخصصة فقط للمهاجرين.

و صلنا ميونخ و هناك غادرنا زهرة و يوسف.

في اليوم التالي مضينا إلى محطة القطار حيث اختار كل منا وجهته ، غادر حسان و عبد الله إلى السويد و الباقون تابعوا إلى مناطق أخرى في ألمانيا.

وصلنا إلى وجهتنا حيث التقانا أحد الأقارب و ساعدنا على إتمام إجراءات التسليم و اللجوء في المكان المخصص لها.

إلى هنا تنتهي هذه القصة،

و لازال أبطالها يمرون بصعوبات من نوع آخر،

الإجراءات و تعلم اللغة و الاندماج،

محاولة إيجاد عمل و التغلب على الحنين للوطن

و الوحدة و غيرها و غيرها مما لا تتسع له صفحات هذا الكتاب.

نسيت أن أعرفكم عن نفسي.

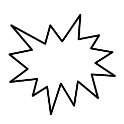
أنا لينا و قد أتممت عامي الواحد و الأربعين

في الحادي و العشرين من نوفمبر عام **2015** هنا، على أرض ألمانيا.

بعيدة آلاف الكيلومترات عن وطني سوريا،

و بعد أن لفظتنا نحن السوريين أغلب بلاد العالم

و اثنتان و عشرون دولة عربية.



السيرة الذاتية للكاتبة

لينا الجبولي

من مواليد عام 1975 حمص، سوريا.

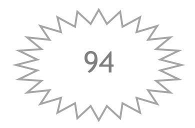
التحصيل العلمي :

تلقت تعليمها في سوريا حتى تخرجها من قسم اللغة الإنكليزية في جامعة البعث عام 1999. تزوجت خلال سنوات الجامعة ثم انفصلت بعد ذلك و لديها ابن وحيد من مواليد 1997 مقيم معها حاليًا في ألمانيا.

العمل :

غادرت الكاتبة سوريا فور تخرجها للعمل في عدد من دول الخليج، السعودية و الكويت و قطر التي استقرت فيها لسبع سنوات قبل سفرها إلى اسطنبول في عام 2013

عملت خلال هذه السنوات في مجال الترجمة الشفوية و تدريس اللغة الإنجليزية و السكرتارية. ثم استقرت في اسطنبول التي اضطرت للسفر إليها بسبب ظروف الحرب و تعقيدات الكفالة في الخليج للانضمام إلى ابنها الذي أمضى معظم حياته بعيدًا عنها.

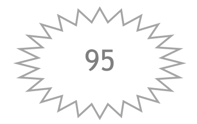


عملت في اسطنبول لدى راديو الكل و هو إذاعة سورية ضد النظام السوري حتى عام **2015** عندما قررت اللجوء إلى ألمانيا لاستحالة عودتها إلى سوريا و صعوبة الحصول على حق اللجوء في تركيا فقامت برحلتها هذه.

تتقن الكاتبة اللغتين العربية و الإنجليزية و القليل من الألمانية. قامت بترجمة العديد من الكتب التدريسية لمعهد مونتيسوري لتعليم المدرسين في أمريكا لجهة خاصة و لكن لم يتم نشر هذه الترجمات للعموم حتى الآن.

تعتبر هذه التجربة الأدبية الأولى لها بعيدًا عن الكتابات التحريرية التي قامت بها ضمن مجال عملها في راديو الكل لعدد من البرامج الإذاعية التي كانت تبث في المناطق المحررة من سوريا.

*****




ديوان العرب
للنشر و التوزيع
96